www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

دولة المهدى المنتظر عليه السلام

الشيخ ابراهيم الانصارى البحرانى

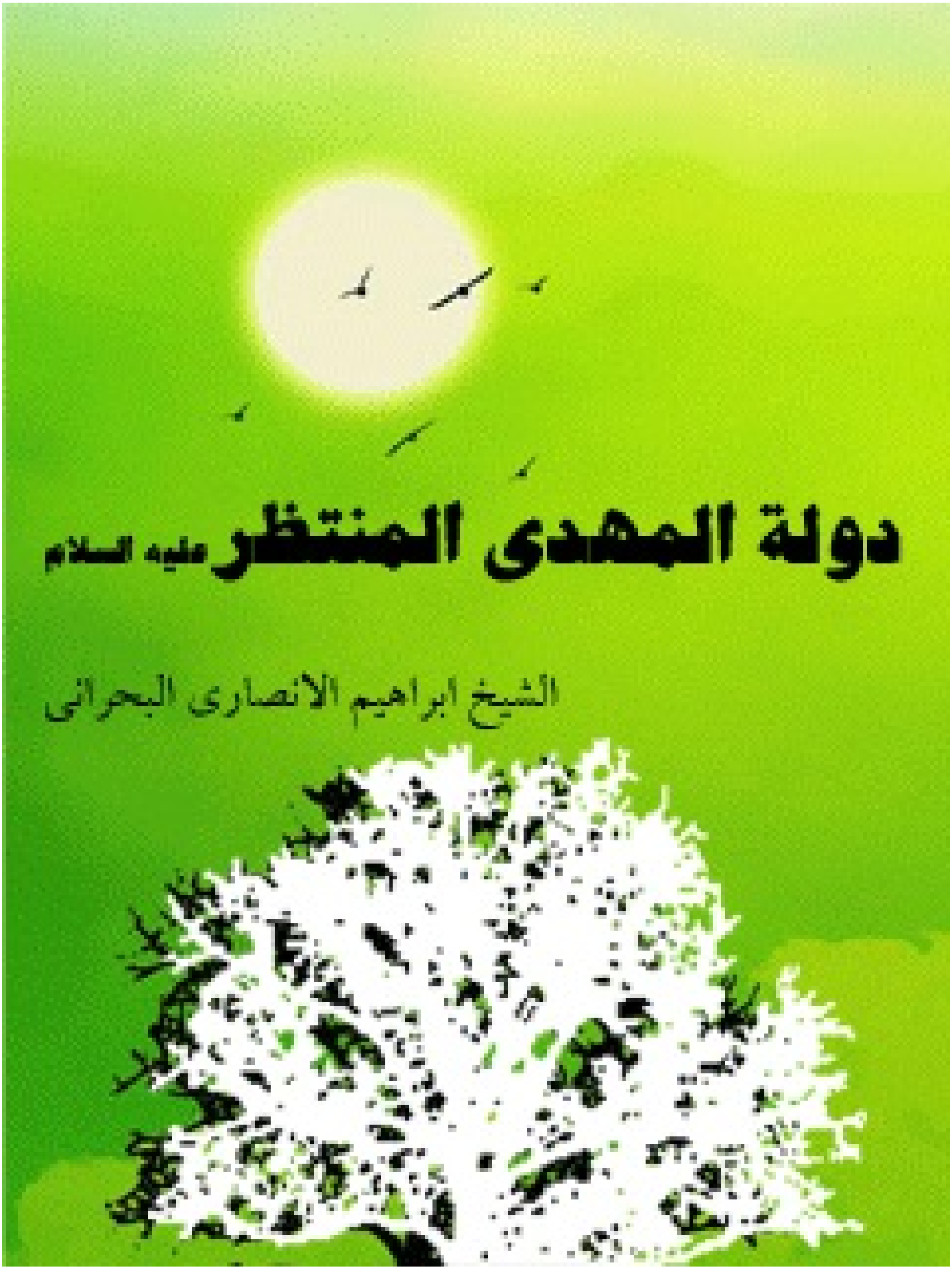

بسم الله الرحمن الرحيم

دولة المهدى المنتظر عليه السلام

كاتب:

الشيخ ابراهيم الانصارى البحرانى

نشرت فى الطباعة:

المكتبه التخصصيه

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
دولة المهدی المنتظر علیه السلام ----- ۹
اشارة ----- ۹
مقدمة ----- ۹
الفصل الأوّل: لولاک لما خلقت آدم ----- ۱۱
[تمهید] ----- ۱۱
العلاقة بین الإنسان والملائکة ----- ۱۲
أوّل ما خلق الله ----- ۱۶
الفصل الثانی: السجود لآدم علیه السلام ----- ۲۰
الفصل الثالث: العهد الإلهی لآدم علیه السلام ----- ۲۵
الفصل الرابع: صفات جنّة آدم علیه السلام ----- ۲۸
الفصل الخامس: الهبوط ----- ۳۲
[تمهید] ----- ۳۲
[هبوط آدم فی القرآن الکریم] ----- ۳۲
[توضیح] ----- ۳۲
الأوّل: بتثنیة الفعل: ----- ۳۲
الثانی: بجمع الفعل: ----- ۳۲
ألف: [فأزلهما الشیطان...] ----- ۳۲
ب: [قلنا اهبطوا] ----- ۳۳
نتیجة الهبوط ----- ۳۳
قبول توبة آدم لا ینافی هبوطه ----- ۳۳
متاع الغرور ----- ۳۴
النفس الأمّارة ----- ۳۵

الفصل السادس: علل الأحكام و التكاليف الإلهيّة ----- ۳۷
[تمهيد] ----- ۳۷
فلسفة بعث الرّسل ----- ۴۰
الغاية من الخلق؟ ----- ۴۰
خلق الإنسان ----- ۴۱
الرجوع إلى الربّ ----- ۴۱
خُلقنا للبقاء ----- ۴۳
الرؤية الكونية ورحمة الربّ: ----- ۴۴
العبودية الاجتماعية ----- ۴۵
ماذا تعنى العبادة ... .هل هى الصلاة والصوم والزكاة والحج وغيرها من الأفعال؟ أم هى شئٌ آخر ما وراء هذه الأفعال والأقوال؟ ----- ۴۵
ماذا تعنى قربةً إلى الله ----- ۴۵
لقاء الله: ----- ۴۵
[تمهيد] ----- ۴۶
اللقاء فى القرآن و السنَّة ----- ۴۶
لذَة الوصال ونار الفراق ----- ۴۶
لقاء الله فى القصيدة العرفانيّة للإمام ----- ۴۷
الرجوع إلى الله ----- ۴۸
الفصل السابع: الغاية من التشريع العلَّة الغائيّة ----- ۴۸
[تمهيد] ----- ۴۸
الغاية من الدين ----- ۴۹
الرجوع إلى الله ----- ۵۰
سبيل الوصول إلى تلك الدولة المباركة ----- ۵۰
الفصل الثامن: الذِّكر ----- ۵۰
[تمهيد] ----- ۵۱

ذکر أهل البیت هو ذکر الله ----- ۵۱
ذکرهم أجر الرسالة ----- ۵۲
أهمیة إحیاء ذکرهم علیهم السلام ----- ۵۲
الفصل التاسع: یوم الوقت المعلوم ----- ۵۳
فمتی هو ذلک الیوم؟ ----- ۵۳
الأجل المُسمَّی ----- ۵۴
النتیجة ----- ۵۴
[الفصل العاشر] بعض صفات دولة المهدی علیه السلام: ----- ۵۵
[تمهید] ----- ۵۵
وصول الإنسان إلی کماله المعنوی ----- ۵۶
مشاهدة المؤمنین بعضهم بعضاً ----- ۵۶
التوسعة الزمانیّة ----- ۵۷
ظهور الملائکة والجن للناس ----- ۵۷
ذهاب العاهة و تقویة القلوب ----- ۵۸
نزول البرکات و التآلف بین الحیوانات ----- ۵۸
المعجزات و الکرامات ----- ۵۹
الخاتمة ----- ۶۰
[الفصل الحادی عشر] معنی الانتظار فی اللغة و الاصطلاح ----- ۶۰
[تمهید] ----- ۶۰
أهمیّة انتظار الفرج ----- ۶۱
أفضل الأعمال ----- ۶۱
السرُّ فی أهمیّة الانتظار ----- ۶۱
القرب إلی الله میزان الأفضلیة ----- ۶۲
الرجاء بالله ----- ۶۲

أفضل الجهاد ----- ۶۳
الانتظار و جانباه الإیجابی و السلبی ----- ۶۳
[تمهید] ----- ۶۳
اشارة ----- ۶۳
الأول: [التولّی] ----- ۶۴
الثانی: [التبرّی] ----- ۶۴
الانتظار و الرفض ----- ۶۴
[توضیح] ----- ۶۴
الرفض من العبادات الاجتماعیة ----- ۶۵
صفات المنتظِر ----- ۶۷
صفاته الاجتماعیة ----- ۶۷
الرفض الاجتماعی ----- ۶۷
[تمهید] ----- ۶۷
الأول: ----- ۶۷
الثانی: ----- ۶۸
الصبر: ----- ۶۸
الأول: الصبر ----- ۶۸
الثانی: التصابر ----- ۶۹
الانتظار و الرجاء ----- ۶۹
[تمهید] ----- ۶۹
الأوّل: من ناحیة الصدور: ----- ۶۹
الثانی: من ناحیة الدلالة ----- ۷۰
دولة المهدی دولة النور: ----- ۷۱
تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ----- ۷۲

دولة المهدى المنتظر عليه السلام

اشارة

تأليف: الشيخ ابراهيم الانصارى البحرانى

ناشر : المكتبه التخصصيه

مقدمة

الثقل الكبير والثقل الأكبر

القرآن الكريم هو الثقل الأكبر الـذى أنزله الله تعالى بما فيه من العظمـة والمنزلة على قلب رسوله محَّمدٍ صـلى الله عليه وآله وسـلَّم ثمَّ نزَّله على هيئة المُصحف الشريف المشتمل على الحروف والكلمات بلسان عربى مبين ليكون هدىً لعامَّة الناس العربىِّ وغير العربى.

فمن كانت لـديه أدنى معرفـة للغـة العربيَّة فلا محالة سوف يُدرك جانباً من ظاهر هذا الكتاب قال تعالى: (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)(۱) وهـذا الخطـاب يشـمل العرب وغيرهم على السـواء، نعم معرفـةُ الجوانب الظاهريّـة الدقيقـة تتوقَّف على الفهم الشامـل للّغة العربية وأسرارها.

ومع ذلك هناك العدد الكبير من الآيات الكريمة غير مفهومة لا من حيث المفهوم والمعنى ولا من حيث المصداق والتطبيق، وليسـت هناك أيُّة وسيلة عادية يمكننا من خلالها الإطِّلاع على تلك الآيات والوصول إلى محتواها الواقعى.

فيا ترى كيف نحلُّ هذه المشكلة؟

وهل هناك من يُطْمأنُّ به كى يُدلَّنا على محتواها وينبئنا عن تفسيرها أو تأويلها؟

أهل البيت هم مفسرُّوا القرآن

إنَّ القرآن الكريم بنفسه قـد عرَّف لنا الوسـيلة ورسم لنا السبيل لفهم تلك الآيات والوصول إلى حقيقتها، قال تعالى: (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ*لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ).(۲)

قال آية الله العظمى السيد الخوئى رضوان الله تعالى عليه (فى مبحث مسِّ القرآن الكريم):

(ثم إن قوله عزَّ من قائـل: لا يمسه إلا المُطهَّرون لا يسـتفاد منه حكم المسألـة فضـلاً أن يـدلَّ عليه بالأولويـة، وذلك: فلأنَّ المطهَّر غيرُ المتطهِّر..فالمطهَّر عبارةٌ عمَّن طهَّره الله سـبحانه من الزلل والخطأ وأذهب عنه كلَّ رجس، والمـذكور فى الآية المباركة هو المطهَّر دون المتطهِّر ففيها إشارة إلى قوله سـبحانه: إنما يريـد الله ليـذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا فمعنى الآية على هذا أن مس الكتـاب – الـذى هو كنايـة عن دركه بمـا له من البواطن – لاـ يتيسَّرُ لغير الأئمـة المطهرين فـإنَّ غير من طهره الله سـبحانه لاـ يصـل من الكتاب إلا إلى ظواهره)(التنقيح فى شرح العروة الوثقى ج ۳ ص۳۱۵) هذا وقال الإمام قدّس سرُّه: (واعلم أنّ للكتاب التدوينى الإلهى بطوناً سـبعة باعتبارٍ وسـبعين بطناً بوجهٍ لا يعلمها إلا اللّه والراسـخون فى العلم ولا يمسُّها إلاّ المطهّرون من الأحداث المعنوية والأخلاق الرذيلـة السـيئة والمتحلُّون بالفضائل العلمية والعمليَّة، وكلُّ من كان تنزّهه وتقدّسه أكثر كان تجلِّى القرآن عليه أكثر وحظُّه من حقائقه أوفر)(۳)

وقال:

(فـإنَّ للقرآن منـازلَ ومراحـلَ وظواهرَ وبواطنَ أدناهـا ما يكون فى قشور الألفاظ وقبور التعيّنات كما ورد إنَّ للقرآن ظهراً وبطناً وحـدّاً ومطلعـاً، وهـذا المنزل الأدنى رزقُ المسـجونين فى ظلمات عالم الطبيعـة، ولا يمسُّ سائرَ مراتبه إلا المطهّرون عن أرجاس عالم الطبيعة وحَدَثه، والمتوضّئون بمـاء الحيـاة من العيون الصافيـة والمتوسّلون بأذيال أهل بيت العصـمة والطهارة والمتَّصـلون بالشـجرة المباركة

الميمونة، والمتمسكون بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها والحبل المتين الذى لا نقض له حتى لا يكون تأويله أو تفسيره بالرأى، ومن قِبَل نفسه فإنَّه لا يعلم تأويله إلا الله و الراسخون فى العلم).(۴)

ومن هنا نعرف أهميَّةَ ما ذكره رسول الله صلى الله عليه وآله حيث قال: (إنِّى تارك فيكم الثقلين كتابَ الله و عترتِى أهلَ بيتى ما إن تمسكتم بهما لن تضلُّوا بعدى أبداً وأنَّهما لن يفترقا حتّى يَردا علىَّ الحوض).(۵)

والحديث من أبرز الأحاديث المتواترة لفظاً لدى الفريقين وقد صدر عنه صلى الله عليه و آله هذا النصّ فى مواطن عديدة، ولو تأمَّلنا فى مضمونه لاستنتجنا منها أموراً كثيرة.

نشير إلى ما ذكره الإمام الزرقانى المالكى حيث قال:

۱- أنَّهم عليهم السلام عِدل كتاب الله.

۲- أنَّ الهداية منحصرة بالتمسك بهما.

۳- أنَّهم هم المفسرون والواقفون على أسرار القرآن ورموزه.

۴-وجود من يكون أهلاً ـ للتمسك بالقرآن من عترته فى كل زمن إلى قيام الساعة حتّى يتوجَّه الحثُّ المذكور على التمسك به كما أنَّ الكتاب كذلك(الإمام الزرقانى المالكى يحكى فى شرح المواهب ج۷ص۸ عن السمهودى نقله العلاّمة الأمينى فى الغدير).

أقول: مضافاً إلى ذلك فالمقصود من لن يفترقا ليس فى عالم الدنيا فحسب بل فى جميع العوالم من المُلك (الدنيا) والملكوت (البرزخ) والجبروت (الآخرة) حتى يردا علىَّ الحوض.

أهل البيت و تفسير القرآن الكريم

التفاسير التى نقلت عن أئمتنا عليهم السلام على نحوين رئيسين:

الأوَّل: ما يبيِّنونه عليهم السلام من معانٍ للآية من غير أن يكونوا بصدد إقناعنا نحن كقولهم فى تفسير ما كنتم تكتمون:

(عن الإمام السجاد عليه السلام:...وما كنتم تكتمون ظَنَنَّا أنّ لا يخلق الله خلقاً أكرم عليه منّا).(۶)

وفى هذه الموارد يأتى دور التعبُّد بكلامهم عليهم السلام وقبول ما صدر منهم حيث أنَّ كلامهم هو كلام الله.

الثانى: وهو الأكثر وذلك من خلال الإستشهاد بآياتٍ أخر متَّصلة بالآية المطلوب تفسيرها أو منفصلة عنها تكون دليلاً على معناها وهذا من تفسير القرآن بالقرآن عن الأئمَّة عليهم السلام.

ولهذا النوع من التفسير شواهدُ عديدةٌ فى كلامهم عليهم السلام سوف تُواجه مواردَ كثيرةً منها ضمن البحث، ولا بأس بذكر أحد النماذج البيِّنَة وهى قضية ابن أبى داود حين رجع من عند المعتصم وهو مُغتَم وكان يتمنَّى أنه لم يكُ حياً حيث أقرَّ رجلٌ على نفسه بالسرقة وأراد من الخليفة أن يُطهِّره بإقامة الحدِّ عليه فجمع لذلك الفقهاء فى مجلسه وكلٌّ قد أفتى بما يراه وكان أبو داود من جملة الفقهاء الذين أفتَوا بغير علم (فالتفت الخليفة إلى محمَّد بن علىٍّ عليه السلام فقال: ما تقول فى هذا، أبا جعفر فقال: قد تكلم القوم فيه، قال دعنى ممّا تكلَّموا به، أىُّ شىءٍ عندك قال أعفنى عن هذا قال أقسمت عليك بالله لما أخبرت بما عندك فيه فقال أما إذا أقسمت علىَّ بالله إنِّى أقول: أنَّهم أخطئوا فيه السنة فإنَّ القطع يجب أن يكون من مفصل أصول الأصابع فيترك الكف قال: و ما الحجَّة فى ذلك قال قول رسول الله صلى الله عليه وآله السجود على سبعة أعضاء الوجه واليدين والركبتين والرجلين فإذا قطعت يده من الكرسوع أو المرفق لم يبق له يد يسجد عليها وقال الله تبارك وتعالى (وأن المساجد لله)(۷) يعنى به هذا الأعضاء السبعة التى يُسجد عليها فلا تدعوا مع الله أحداً وما كان لله لم يُقطع. قال: فأعجب المعتصم ذلك وأمر بقطع يد السارق من مفصل الأصابع دون الكف).(۸)

فليس بإمكاننا معرفة حقيقة القرآن إلاّ بالرجوع إليهم عليهم السلام حيث أنَّه لا يَعرف القرآن إلاّ من خوطب به، فنقول وبصريح الكلمة:

إنَّ القرآن يساوى أهلَ البيت وأهلُ البيت يساوون القرآن لا ولن يفترقا أبداً.

فلو واجهت فى خلال البحث أنَّنا نُربط الآيات كلَّها بأهل البيت فلا تتعجَّبْ من ذلك، فهُم القرآن الناطق و لا يُمكن فهم القرآن دونهم فكلَّما سلك الإنسان طريقاً مهما طال وبَعُد فلابدَّ أن يصل إليهم ويلتقى بهم من قبل أن يضِّل ويخزى.

الفصل الأوَّل: لولاك لما خلقت آدم

[تمهيد]

إنَّ قصَّة خلق آدم طويلة إلاّ أنَّنا نحاول الإشارة إلى بعض الجوانب المهمَّة منها، قال تعالى:

(وإذ قال ربُّك للملائكةِ إنِّى جاعلٌ فى الأرض خليفة)(۹)

فهاهنا يُذكِّر الله سبحانه نبيَّنا تلك القضيَّةَ التّى حدثت عند خلق آدم فيقول وإذ أى أُذكر ذلك الحدث، والظرف إذ منصوب بإضمار أذكر.(۱۰)

فيستفاد من ذلك أنَّ النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم كان قد شهد تلك المشاهد من بداية الخلق حيث يقول سبحانه:

(وإذ قال ربّك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة)

وبطبيعة الحال كان صلوات الله عليه يعلم تفصيلاً وعلى مستوى الجزئيات تلك القضايا والحوادث التى مرَّت من بداية خلق آدم وما حدث بعد ذلك ومهمّة القرآن ليست هى إلاّ تذكيره عليه السلام بها، ومن هنا نشاهد أنَّه سبحانه يقول:

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ).(۱۱)

ولا يخفى الفرق بين الغفلة وبين الجهل فهو صلوات الله عليه لم يكن جاهلاً بتلك القصص بل كان عالماً بها والقرآن إنَّما يُذكِّره بما كان يعلمه وغفل عنه. وقد ذُكرت كلمة إذ بهذا المعنى فى أكثر من مائتى موردٍ من القرآن، كما أنَّه قد صرَّح سبحانه بقوله (واذكر) فى موارد عشرة وهى:

۱- (وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذْ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا).(۱۲)

۲- (وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا).(۱۳)

۳- (وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا).(۱۴)

۴- (وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا).(۱۵)

۵- (وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا).(۱۶)

۶- (..وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ).(۱۷)

۷- (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِى الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ).(۱۸)

۸- (وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى الأَيْدِى وَالأَبْصَارِ).(۱۹)

۹- (واذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنْ الأَخْيَارِ).(۲۰)

۱۰- (وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ..).(۲۱)

فإذاً النبىُّ صلى الله عليه وآله كان عالماً بتأريخ السابقين من الأنبياء والأولياء وغيرهم وذلك لعلمه بالغيب وهذه الحقيقة من عقائدنا المسلَّمة الثابتة عقلاً ونقلاً وليس هنا موضع الحديث عنها.

على أنهم أوَّل ما خلق الله كما سيتضح لك فيما بعد وفى الزيارة الجامعة المنقولة فى عيون أخبار الرضا عليه السلام مسنداً عن الإمام النقى عليه السلام:

(خلقكم الله أنواراً فجعلكم بعرشه مُحدقين حتَّى منَّ علينا بكم فجعلكم فى بيوت أذن الله أن ترفع ويُذكر فيها اسمه)(۲۲)

فهم إذاً قد شاهدوا جميع ما خلق الله من الموجودات وكانوا قد اطَّلعوا عليها.

العلاقة بين الإنسان والملائكة

ينبغى لنا أن نبيِّن مدى العلاقة والارتباط المتواجد بين الملائكة وبيننا نحن البشر، فهناك ترابط حيوى له دور فى حركة الإنسان الرسالى الذى ينطلق من مبدأ العقل والقلب، فكما أنَّ الاعتقاد بالتوحيد والنبوة والإمامة وسائر الأصول له تأثير فى تعامل الإنسان وارتباطه مع ما حولَه من الموجودات كذلك الاعتقاد بالملائكة أيضاً له ذلك الدور الذى يسيِّره نحو الكمال المطلق.

ومن هذا المنطلق صار الإيمان بالملائكة من جملة الأمور العقائديَّة التّى قد آمن بها الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم، وآمن بها كلّ المؤمنين.

(آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ).(۲۳)

وفى موطن آخر نشاهد أنَّ الله سبحانه حكم على الكافرين بالملائكة، بالضلال البعيد فيقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيدًا).(۲۴)

وأما دور الملائكة ومسئولياتهم الخطيرة تجاه الإنسان فهى كثيرة والملاحظ فى القرآن الكريم أنَّ من أهمِّ أدوار الملائكة هو الصلاة المستمرة على النبيِّ تبعاً لصلاة الله تعالى عليه:

(إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا).(۲۵)

وأيضاً صلاتهم على المؤمنين

(هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا).(۲۶)

ولابدّ أن نعلم أنَّ هناك مرحلة أهمّ من ذلك وهى التعرُّف على الملائكة الموكَّلة علينا خاصَّة لأنه لا محالة سوف نواجههم ويواجهوننا بل نصحبهم ويصحبوننا فى كلٍ من عالمى البرزخ والآخرة.

ففى تفسير الإمام: (قال عليه السلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ... فإنَّ كلَّ واحدٍ منكم معه ملكٌ عن يمينه يكتب حسناته و ملكٌ عن يساره يكتب سيئاته ...).(۲۷)

كلُّ ذلك أدَّى إلى طرح موضوع خلقة آدم - وخلافة بنيه فى الأرض -على الملائكة فقال تعالى لهم:

(..إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً..).(۲۸)

والظاهر أنّه ليس المراد أنّ آدم نفسَه يكون خليفة فى الأرض بل كان خلق آدم لأجل تلك الخلافة التّى سوف يمنحها ويجعلها سبحانه لبعضٍ من وُلده وهم الخُلَّص من عباده وهم الذين يجدر أن يطلق عليهم الإنسانُ الكامل بمعنى الكلمة.

وبالطبع هم نور واحد وحقيقة فاردة وإن تكثّروا فى عالم الطبيعة ومن هنا نشاهد أنّه سبحانه لم يذكر الخليفة بصورة الجمع فلم يقل خلائف أو خلفاء بل جعلها مفردة.

الأمانة الإلهيَّة

إنَّ الخلافة الإلهية تعنى النيابة عنه تعالى فى جميع شئونه وصفاته الجمالية والجلالية وهو أمر عظيم بل هو الأمر كما أنَّ الأوصياء هم أولوا الأمر ولعلها هى الأمانة الإلهية التىّ يتطرق إليها سبحانه فى قوله:

(إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً).(۲۹)

وحيث أنَّ الإنسان قد حمل تلك الأمانة فلا بدَّ إذاً من أن يُمدح ويُحمد على ذلك لا أن يُذمّ ويُعاتب، وبالفعل قد مدحَه الله سبحانه بأنَّه كان ظلوماً جهولاً، فانظر إلى لطافة هذا التعبير وتمعَّن فى محتواه فإنَّ الإنسان كان من أوّل الأمر ظلوماً بالنسبة إلى ما سوى الله سبحانه، وجهولاً بجميع الموجودات سوى بارئه تعالى، فلم يكن يطلب إلّا الله ولم يكن يعرف إلّا المطلق.

(من بخال لبت أى دوست كرفتار شدم)

فالخال كناية عن وحدة الذات المطلقة وهو مبدأ ومنتهى الكثرة الاعتبارية وهو الهوية الغيبية المحتجبة عن الإدراك والشعور.

هكذا فسَّر إمامُنا قدِّس سرُّه هذه الآية المباركة وما أعظمه من تفسير!! وقال فى بعض أشعاره:

(عارفان رخ تو جمله ظلوم اند وجهول....اين ظلومى وجهولى، سر وسودای من است)

أى عرفاء وجهك كلهم ظلومون وجهولون.... هذا الظلوم والجهول من أعظم ما يختلج فى خاطرى. قال الإمام قدس الله روحه:

(وهاتان الصفتان (أعنى الظلومية والجهولية) هما أحسنُ صفتين اتصف بهما الإنسان من بين سائر صفاته)

أقول: إنَّ هذا التفسير نابعٌ من ذلك الفكر العرفانى الذى يبنى عليه إمامُنا سائَر أفكارِه المميَّزة والذى هو أهم أساس لرؤيتِه العرفانيَّة وأفكاره النورانيَّة بل حتّى مواقفه الثورية ضد الطغاة المستكبرين.

وهذا الأساس هو (العشق بالكمال المطلق)(الأربعون حديثا، الحديث۱۱ ص ۱۷۹ الى ۱۸۷ و كتاب شرح دعاء السحر) والحديث عن هذا الموضوع ذو جوانب عديدة وشُعب كثيرة لعلِّى وُفقت لإفراد رسالة عنه إنشاء الله تعالى.

هذا:

الملائكة لم تتوفر لديها أرضيَّة الخلافة وكذا سائر الموجودات حيث أن الملائكة مظاهر جمال الله ليس إلا كما أنّ هناك موجودات كثيرة وبالأخص فى جنس الحيوانات هى مظاهر الجلال الإلهى.

الإنسان مظهر الجمال والجلال

أمّا الإنسان فهو مظهر للجمال والجلال معاً وذلك لوجود الجانبين فيه ومن هنا نعلم السرّ فى التعبير القرآنى حيث يقول سبحانه مخاطباً لإبليس:

(..مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ..).(۳۰)

دون الملائكة ولاختصاصه بالعشق دون الجن.

قال الإمام قدِّس سرُّه: (فهو تعالى بحسب مقام الإلهية مستجمع للصفات المتقابلة كالرحمة والغضب، و البطون والظهور، و الأوّليَّة والآخريّة، و السخط والرضا، وخليفته لقربه إليه ودنّوه بعالم الوحدة والبساطة مخلوق بيدى اللطف والقهر وهو مستجمع للصفات المتقابلة كحضرة المستخلف عنه. ولهذا اعترض على إبليس بقوله تعالى: (..مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ..).(۳۱) مع أنّك مخلوق بيد واحدة. فكل صفة متعلق باللطف فهى صفة الجمال، وكل ما يتعلق بالقهر فهو من صفة الجلال. فظهور العالم ونورانيّته وبهائه من الجمال وانقهاره تحت سطوع نوره وسلطة كبريائه من الجلال وظهور الجلال بالجمال واختفاء الجمال بالجلال جمالك فى كل الحقايق ساير وليس له إلّا جلالك ساتر).(۳۲)

ثمَّ: إنَّ إمامنا له بيان آخر أدقّ مما ذكرناه قد بيَّنه فى كتابه مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية

قال: (نور: لعلّ الأمانة المعروضة على السموات و الأرض والجبال التى أَبَينَ عن حملها و حمَلَها الإنسان الظلومُ الجهول هى هذا المقام الإطلاقى فإن السموات و الأرضيين و ما فيهن حدودات مقيدات حتى الأرواح الكلية و من شأن المقيَّد أن يأبى عن الحقيقة الإطلاقية. و الأمانة هى ظلّ الله المطلق وظّل المطلق مطلق يأبى كل متعين عن حملها و أما الإنسان بمقام الظلوميّة التى هى التجاوز عن قاطبة الحدودات و التخطى عن كافّة التعيّنات و اللَّا مقامى المشار إليه بقوله تعالى شأنه على ما قيل: (يا أهل يثرب لا مقام لكم) والجهولية التى هى الفناء عن الفناء قابل لحملها فحملها بحقيقتها الإطلاقية حين وصوله إلى مقام قاب قوسين و تفكّر فى قوله تعالى: (أو أدنى)

و اطفِ السراج فقد طلع الصبح).(۳۳)

أقول:

إنَّ الفناء عن الفناء من المراتب الراقية للإنسان حيث لا يتوجَّه الإنسان إلى نفسِه أصلاً (بل هو فانٍ فى الله) و لا يتوجَّه إلى عدم توجُّهه و فنائه (لأنَّ التوجُّه إلى الفناء هو نوعٌ من الأنانيَّة).

قال مولانا جلال الدين الرومى:

(در خدا كُم شَو كمال اينست وبس كُم شدن كُم كُن وصال اينست)

افن فى الله فهو الكمال ليس إلاّ و افن فى فنائك فهو الوصال ليس إلاّ.

ماذا يعنى (ربُّك)؟

ولنرجع إلى الآية المباركة فنقول إنَّ إضافة الربّ إلى ضمير الكاف فى قوله (ربّك) تشير إلى أنّ القضية راجعة إلى شخص النبىّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، فالله بما أنه ربّ النبى قال للملائكة إنّى جاعل فى الأرض خليفة، فالخلافة إذاً لها مساس جذرى بشخصيّة النبى صلى الله عليه وآله وسلَّم.

حديث الملائكة

ثمَّ إنَّ لحن كلام الملائكة حيث قالوا:

(..أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ..).(۳۴)

وإن كان الظاهر منه الاحتجاج أو التعجُب إلاّ أنَّهم لم يكونوا بصدد ذلك كيف وهم

(..عِبَادٌ مُكْرَمُونَ*لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ).(۳۵)

فماذا كانوا يهدفون من قولهم هذا؟ إنَّهم كانوا يريدون أن يطَّلعوا على حقيقة الأمر فى مسألة الخلافة الإلهية فكانوا لا يرون عملاً أعظم ممّا يمارسونه هُم من التسبيح بحمده تعالى والتقديس غافلين عن مرحلةٍ أخرى والتّى هى أعظم من التسبيح والتقديس وهى العبوديَّة التّى هى جوهرة كنهها الربوبيَّة ! ومن هنا كانوا يتسائلون حول هذه الخلافة؟ وكانوا يتوقعون الوصول إلى مستوى الإستخلاف كما فى الحديث:

(عن الصادق عليه السلام...يا ربِّ إن كنت ولابدَّ جاعلاً فى أرضك خليفةً فاجعله منّا).(۳۶)

ومن ناحية أخرى كانت الملائكة قد اطلعت ومن قبل أن يُخلق الإنسان أنَّه بخروجه من الجنَّة سوف يرتكب الجرائم البشعة من الإفساد فى الأرض بل سفك الدماء حيث يقولون:

(..أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ..).(۳۷)

أما كيف علموا ذلك فلسنا بصدد الحديث عنه هنا – فبناءً على ذلك يكون استفهام الملائكة أمراً طبيعيّاً وفى محلِّه.

إقناع الملائكة

وكيف أجابهم الله جلَّ شأنه؟

(..قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ).(۳۸)

فلم يُنكر سبحانه تلك الأمور أعنى الإفساد فى الأرض وسفك الدماء كظاهرة سوف تصدر من هذا البشر بل الظاهر أنَّه قد قرَّرها، ولكنه سبحانه بيَّن للملائكة أنَّهم جاهلون بما يعلمه هو.

وهاهنا يتوجَّه سؤال وهو: ماذا كان يعلم الله سبحانه وتعالى؟ هذا ما سيتبيَّن من خلال البحث. قال سبحانه:

(وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا..).(۳۹)

هناك ارتباط وثيق بين الإسم والمُسمّى بحيث كلما يذكر الاسم وكأنَّ المُسمى قد حضر لدى السامع، لأنَّ الاسم ليس هو إلاّ مرآة

للمسمَّى ولهذا قالوا أنَّ وجود الاسم هو وجود المسمى أو بالأحرى تنزيل للمسمّى وتجلٍّ له ولهذا نشاهد انتقال الجمال والقبح من المسمَّى إلى الاسم.

وعلى ضوء ذلك أقول:

إنَّ الله سبحانه قد علَّم آدم الأسماء كلها وذلك بدليل الآية المباركة حيث التأكيد بـ (كلِّها) مضافاً إلى الجمع المحلَّى باللاّم الدال على العموم، وهذه الأسماء كلَّها كاشفة عن المُسمَّيات العينية الخارجية فهى كانت حقائق لم يتيسَّر للملائكة الوصولُ إليها ولم تعرف الملائكة أسمائها من قبل أن ينبأهم آدم بأهمِّها التّى كانت مستوعبة ومخيِّمة على سائر الأسماء كما سنبيِّن ذلك. والأحاديث المبيِّنة لتلك الأسماء تتلخَّص فى طوائف ثلاثة:

الأوَّل:

(عن الفضل بن عباس عن أبى عبد الله عليه السلام قال سألته عن قول الله عز وجل وعلم آدم الأسماء كلها ما هى؟ قال: أسماء الأودية والنبات والشجر والجبال من الأرض).(۴۰)

الثانى:

(عن أبى العباس عن أبى عبد الله عليه السلام قال سألته عن قول الله وعلم آدم الأسماء كلها ماذا علمه قال الأرضيين والجبال والشعاب والأودية ثم نظر إلى بساط تحته فقال و هذا البساط مما علمه).(۴۱)

الثالث:

(عن داود بن سرحان العطار قال كنت عند أبى عبد الله عليه السلام فدعا بالخوان فتغدينا ثم جاءوا بالطشت والدست سنانه فقلت جعلت فداك قوله وعلم آدم الأسماء كلها الطست والدست سنانه منه فقال الفجاج والأودية وأهوى بيده كذا وكذا).(۴۲)

أسمائكم فى الأسماء

ولكن حيث أنّه لم تكن لجميع هذه الأسماء علاقة بمقام الخلافة الإلهيّة نجد أنَّه تعالى يعرض قسما مميَّزاً منها خاصَّة أعنى مسمَّياتها ومصاديقها وبطبيعة الحال كانت لتلك المُسميّات علاقةً بالمهمِّ أعنى الخلافة التّى كان سبحانه بصدد إفهامها للملائكة لغرض توجيه خلق آدم عليه السلام.

أنظُر إلى هذا التعبير وتأمّل فى كلمة (ثم) فى قوله تعالى (ثمَّ عرضَهم على الملائكة).(۴۳)

فإنها قد فصَّلتْ بين جميعِ الأسماء وبين التّى عُرضَتْ على الملائكة. وتأمَّل أيضاً فى الضمير (هم) فإنَّه لو كانت الأسماء هى المعنيَّة والمعروضة عليهم دون المسمَّيات أو كانت تعنى المسميات التِّى لا تمتلك التعقُّلَ لكان التعبير الصحيح هو (عَرضَها) لا (عَرضَهُم).

وأصرح من ذلك قوله تعالى: (فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين).(۴۴)

فهل يحتمل من يعرف ألف باء اللغةِ العربيةِ أنَّ كلمة هؤلاء تعنى الموجودات من الجبال والشعاب والأودية والنبات والشجر بأصنافها؟!.

أقول: بل إنَّما هى أسماء من سيَأتون على الأرض من ذريَّة آدم الذين هم محلّ الاحتجاج والنزاع وبوجود تلك الذرِّية يمكن تبرير خلق آدم عليه السلام وجعله خليفة فى الأرض، وبهم تُجبَر جميعُ المفاسد التِّى سوف يرتكبها بعضُ أولاد آدم عليه السلام ولا يخفى أنَّ كلمة هؤلاء تدلُّ على حضورهم بعينهم آنذاك وهم بعرشه محدقين.

الهوامش

---

(۱) يوسف: ۲. (۲) الواقعة/۷۷:۷۹. (۳) شرح دعاء السحر ص۷۱. (۴) شرح دعاء السحر. (۵) الحديث متواتر بين العامة و الخاصة راجع:بحار الأنوار ج۲ ص۱۰۰ رواية ۵۹ باب۱۴-ج۲ ص۲۸۵ رواية ۲ باب۳۴-ج ۵ ص ۲۱ رواية ۳۰ باب۱. (۶) بحار الأنوار ج ۹۹

ص ۲۰۵ روایة ۱۹ باب۳۶. (۷) الجن/۱۸. (۸) بحار الأنوار ج ۵۰ ص ۶ روایة ۷ باب۱-ج ۷۹ ص ۱۹۱ روایة ۳۳ باب۹۱-ج ۸۵ ص ۱۲۸ روایة ۱ باب۲۷-ج ۸۵ ص ۱۳۸ روایة ۲۱ باب ۲۷. (۹) البقره/۳۰. (۱۰) تفسیر الکشاف للزمخشری ج۱ ص۲۷۱. (۱۱) یوسف/۳. (۱۲) مریم/۱۶. (۱۳) مریم/۴۱. (۱۴) مریم/۵۱. (۱۵) مریم/۵۴. (۱۶) مریم/۵۶. (۱۷) ص/۱۷. (۱۸) ص/۴۱. (۱۹) ص/۴۵. (۲۰) ص/۴۸. (۲۱) الأحقاف/۲۱. (۲۲) بحار الأنوار ج۱۰۰ ص۱۰۳ روایة۱ باب۶. (۲۳) البقرة/۲۸۵. (۲۴) النساء/۱۳۶. (۲۵) الأحزاب/۵۶. (۲۶) الأحزاب/۴۳. (۲۷) بحار الأنوار ج۶۳ ص۲۷۱ روایة ۱۵۸ باب۳. (۲۸) البقرة/۳۰. (۲۹) الأحزاب/۷۲. (۳۰) ص/۷۵. (۳۱) ص/۷۵. (۳۲) شرح دعاء السحر. (۳۳) مصباح الهدایة إلی الخلافة و الولایة ص۹۶. (۳۴) البقرة/۳۰. (۳۵) الأنبیاء/۲۷،۲۶. (۳۶) بحار الأنوار ج ۱۱ ص ۱۰۸ روایة ۱۷الباب۱-ج۵۷ ص ۳۶۷ روایة ۴ باب۴-ج ۶۱ ص ۲۹۹ روایة ۷ باب۴۷-ج ۶۳ ص ۸۳ روایة ۳۸ باب۲-ج ۹۹ ص ۳۲ روایة ۷ باب۴. (۳۷) البقرة/۳۰. (۳۸) البقرة/۳۰. (۳۹) البقرة/۳۱. (۴۰) بحار الأنوار ج ۱۱ ص ۴۷۱ روایة ۱۹ باب۲. (۴۱) بحار الأنوار ج۱۱ ص۱۴۷ روایة۱۸ باب۲. (۴۲) بحار الأنوار ج۱۱ ص۱۴۷ روایة۲۰ باب۲. (۴۳) البقرة ۳۱. (۴۴) البقرة ۳۱.

ولعلَّ قوله علیه السلام فی الزیارة الجامعة الکبیرة وأسمائکم فی الأسماء إشارة إلی هذه الحقیقة حیث کانت أسمائهم فی الأسماء التّی علَّمها الله آدم علیه السلام.

ثمَّ إنَّه علی ما ذکرناه یمکننا معرفة ما تروم إلیه الأحادیث المتظافرة فی هذا المجال، ورعایة للاختصار نذکُر بعضها:

ذکر العلامة المجلسی رحمه الله فی البحار عنواناً فی مساواة علی علیه السلام مع آدم وإدریس ونوح علیهم السلام نقله عن کتاب مناقب آل أبی طالب، ومن جملة ما ذکر الروایةَ التالیة:

(بإسناده عن علی علیه السلام قال النبی صلی الله علیه وآله: یا علی أنت بمنزله الکعبة تُؤتی ولا تأتی، آدم باع الجنة بحبّات حنطة فأُمر بالخروج منها قلنا اهبطوا منها جمیعا وعلیٌ اشتری الجنة بقرص فأُذن له بالدخول فیها وجزاهم بما صبروا جنة، علم آدم الأسماء کلها وکان اسم علی وأسماء أولاده علیه السلام فعلَّم اللهُ آدم أسماءهم).(۱)

وفی کتاب الإحتجاج للطبرسی:

(عن أبی محمَّد العسکری علیه السلام.... فقال رسول الله وهل شرفت الملائکة إلا بحبِّها لمحمَّد وعلیٍّ وقبولها لولایتهما انه لا أحد من محبِّی علیٍّ علیه السلام نظف قلبه من قذر الغش والدغل والغل ونجاسة الذنوب إلا کان أطهر وأفضل من الملائکة، وهل أمر الله الملائکة بالسجود لآدم إلا لما کانوا قد وضعوه فی نفوسهم إنه لا یصیر فی الدنیا خلق بعدهم إذا رفعوهم عنها إلا و هم یعنون أنفسهم أفضل منهم فی الدین فضلا و أعلم بالله و بدینه علما، فأراد الله أن یعرفهم أنهم قد أخطئوا فی ظنونهم واعتقاداتهم فخلق آدم و علمه الأسماء کلَّها ثم عرضها علیهم فعجزوا عن معرفتها، فأمر آدم أن ینبئهم بها و عرفهم فضله فی العلم علیهم، ثم أخرج من صلب آدم ذریَّة منهم الأنبیاء والرسل و الخیار من عباد الله أفضلهم محمَّد ثم آل محمَّد، ومن الخیار الفاضلین منهم أصحاب محمَّد وخیار أمه محمَّد، و عرف الملائکة بذلک أنهم أفضل من الملائکة إلی آخر الحدیث...).(۲)

والروایة التالیة المنقولة فی الکافی خیر شاهد علی ذلک:

(عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد عن ابن فضال عن أبی جمیلة عن محمد الحلبی عن أبی عبد الله علیه السلام قال أن رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم قال: أن الله مثَّل لی أمتی فی الطین و علمنی أسماءهم کما علم آدم الأسماء کلها فمرَّ بی أصحاب الرایات فاستغفرت لعلی و شیعته أن ربی وعدنی فی شیعة علی خصلة، قیل یا رسول الله و ما هی قال المغفرة لمن آمن منهم..).(۳)

أقول:

الظاهر أن قوله علیه السلام (علَّمنی أسمائهم) ثم تشبیهه صلی الله علیه وآله هذا التعلیم بتعلیم آدم علیه السلام الأسماء کلّها یدلُّ علی أنَّ الأسماء التّی علمَّها الله آدم علیه السلام لیست هی أسماء الجمادات والنباتات والحیوانات فقط بل هی شاملة للإنسان أیضاً.

أوّل ما خلق الله

أقول: إنهم عليهم السلام أوَّل ما خلق الله ولأجلهم خُلِقت سائر الموجودات (لولاك لما خلقت الأفلاك) وأيضاً (لولاك لما خلقت آدم).(۴)

وهذه المسألة ثابتة عقلاً ونقلاً ففى الحديث: (عن جابر بن عبد الله قال قلت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم أول شئ خلق الله تعالى ما هو؟ فقال نور نبيك يا جابر خلقَه الله ثم خلق منه كلَّ خير).(۵)

وقال مولى العارفين الإمام العظيم نوَّر اللهُ ضريحه فى كتابه القيِّم مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية(۶):

(مطلَع: إن الأحاديث الواردة عن أصحاب الوحى والتنزيل فى بدء خلقهم عليهم السلام وطينة أرواحهم وأنّ أول الخلق روح رسول الله وعلىّ صلى الله عليهما وآلهما، وأرواحهم إشارة إلى تعين روحانيتهم التى هى المشيئة المطلقة والرحمة الواسعة تعيّناً عقليّاً لأنّه أول الظهور هو أرواحهم عليهم السلام، والتعبير بالخلق لا يناسب ذلك فإن مقام المشيئة لم يكن من الخلق فى شىء بل هو الأمر المشار إليه بقوله تعالى: (ألا له الخلق والأمر)، وأن يُطلق عليه الخلق أيضا كما ورد منهم" خلق الله الأشياء بالمشيئة والمشيئة بنفسها "وهذا الحديث الشريف أيضا من الأدلة على كون المشيئة المطلقة فوق التعيُّنات الخلقية من العقل وما دونه. ونحن نذكر رواية دالّة على تمام المقصود الذى أقمنا البرهان الذوقى عليه بحمد الله تيمّناً بذكره و تبرّكاً به فى الكافى الشريف:

أحمد بن إدريس عن الحسين بن عبد الله الصغير عن محمد بن إبراهيم الجعفرى عن أحمد بن على بن محمد بن عبد الله بن عمر بن على بن أبى طالب عليه السلام عن أبى عبد الله عليه السلام قال: أن الله كان إذ لا كان فخلق الكان والمكان ? خلق نور الأنوار الذى نورت منه الأنوار وأجرى فيه من نوره الذى نورت منه الأنوار وهو النور الذى خلق منه محمداً وعليّاً، فلم يزالا نورين أولين إذ لا شئ كون قبلهما فلم يزالا- يجريان طاهرين مطهرين فى الأصلاب الطاهرة حتى افترقا فى أطهر طاهرين فى عبد الله وأبى طالب عليهما السلام).(۷)

توضيح كلام الإمام(قده)

إنَّ الله شاء فخلق، فأول ما صدر منه تعالى هو المشيئة وبها خلق الأشياء ولهذا سميت الأشياءُ أشياءً لأنها تجلٍ للمشيئة الإلهية فكيف ظهرت تلك المشيئة بنفسها؟ وفى ماذا ظهرت؟ وبطبيعة الحال ذلك المظهر ليس هو شيئاً بل هو أعلى من مستوى الشىء وهو ما يُطلق عليه بالأمر كما تشير إليه الآية المباركة (ألا له الخلق و الأمر)(۸) ومن خلاله خُلقت الأشياء فأصبح هو واسطة للأشياء و رابطة بينها وبين الله تعالى.

فلا مشيئة قبل المشيئة حيث لا يمكن القول بأنَّ الله شاء أن يشاء أن يخلق الأشياء لأنَّه سوف يستمِّر هذا السؤال بالنسبة إلى المشيئة الأولى فربَّ قائل يقول: هل شاء أن يشاء أن يشاء أن يخلق الأشياء؟

وهذا السؤال لا ينتهى فيجرَّ الإنسان إلى ما لا نهاية لها من الأسئلة فيتورَّط فى التسلسل الباطل فلا بدَّ إذاً أن يتوقَّف.

عالم المشيئة ليس هو من عالم الخلق بل هو من عالم الأمر والمشيئة لم تُخلق كخلق الأشياء الأخرى، بل لو أطلق عليها الخلق فيراد بذلك نمطٌ خاصٌّ من الخلق يختلف عن خلق سائر الأشياء، والمشيئة قد تجلَّت فى المخلوق الأوَّل وهم أنوار محمد وآل محمد، ولأجل ذلك يطلق عليهم" أولوا الأمر، "وهم واسطة الفيض كما يُشير إلى ذلك قوله تعالى: (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا) ثمَّ إنَّه: قد ورد فى زيارة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم المنقول عن كلٍّ من الشيخ المفيد والسيد والشهيد:

(أوَّل النبيين ميثاقا وآخرهم مبعثاً الذى غمسته فى بحر الفضيلة و المنزلة الجليلة و الدرجه الرفيعة و المرتبة الخطيرة فأودعته الأصلاب الطاهرة ونقلته منها إلى الأرحام المطهرة..).(۹)

لا يسبقونه بالقول

ثمَّ إنَّ الملائكة قد أظهروا عجزهم فى قبال هذا الأمر:

(قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم).(۱۰)

وكلامهم هذا فى غاية الأدب والخضوع حيث ابتدؤا بالتسبيح ثمَّ نفوا العلم بنحو مطلق عن أنفسهم ونَسبوه إلى ربِّهم وفى خصوص الأسماء حيث أنَّه تعالى لم يعلِّمهم ذلك فلا علم لهم، ثمَّ أكَّدوا على أنَّ الله هو العليم الحكيم وفى ذلك إشارة إلى أنَّهم كانوا يرغبون فى معرفة تلك الأسماء إن اقتضت الحكمة الإلهية.

الملائكة اقتنعوا

وهاهنا يأتى دور الخطاب الموَّجه إلى آدم عليه السلام وهو نهاية المطاف وآخر مراحل الحديث مع الملائكة ومن خلال هذا الخطاب وجوابه وصل الملائكة إلى درجة الاطمئنان إن صح هذا التعبير بخصوص الملائكة!!

(قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأَهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون).(۱۱)

أقول: إنَّ الله سبحانه فى هذه المرحلة يخاطب آدم عليه السلام ويطلب منه أن يُنبأ الملائكة بتلك الأسماء، والإنباء ليس هو مجرَّد الإعلام بل يُطلَق على خبرٍ ذى فائدةٍ عظيمة وذلك الذى يحصل منه علم أو غلبة الظن. قال الراغب الاصفهانى فى مُفرداته

(النبأ خبرٌ ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظنٍّ، ولا يقال للخبر فى الأصل نبأ حتَّى يتضمَّن هذه الأشياء الثلاثة..)

ومراجعة موارد استعمال الكلمة فى القرآن الكريم أحسن دليل على ذلك قال تعالى:

(فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون)(۱۲) (ولقد جاءك من نبأ المرسلين)(۱۳) (لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون)(۱۴) (واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه)(۱۵) (قل هو نبأ عظيم)(۱۶) (ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم)(۱۷) (تلك القرى نقص عليك من أنبائها)(۱۸) (نَبِّأْ عبادى إنِّى أنا الغفور الرحيم)(۱۹) (قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا).(۲۰)

ومن الواضح أنَّه تعالى كان يريد تثبيت شخصية آدم عليه السلام وبيان منزلته العظيمة لا كآدم عليه السلام فحسب بل باعتبار أنَّه المَنشأ للخلق الجديد الذى يُطلَق عليه إنسان ذو الخصوصيّات المتميِّزة بين سائر الموجودات.

وهل الله سبحانه كان يريد أن يتعرف الملائكة على مستوى علم آدم عليه السلام وعلى ضوئه يخضعوا له بالسجود؟ هذا ما اعتقد به جمعٌ من المفسرين مع ما يتوجَّه إليهم من الملاحظات التى لا يمكن التخلُّص من الكثير منها.

أقول: هناك احتمال آخر أقوى ممّا ذُكر يتلاءم مع الأحاديث الشريفة أيضاً، وهو أنَّه سبحانه بعد أن عرض على الملائكة تلك الأنوار الطاهرة خلفائَه على البرية وحججه على خلقه ولم يتعرف الملائكة لا على أشخاصهم ولا على أسمائهم، فبطبيعة الحال لم يسكن غليلهم ولم يطمئنوا حيث لم تتمُّ لديهم فلسفة خلق الإنسان، فأراد سبحانه من آدم عليه السلام أن يُعرِّفهم للملائكة بذكر أسمائهم قال يا آدم أنبأهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم أذعنوا بالأمر واستسلموا و انحلت تلك الشبهة الغامضة التى نشأت من رؤيتهم غير الصحيحة بالنسبة إلى خلق آدم وهى أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء!

ولا بأس بالإشارة إلى حديثين فى هذا المجال:

۱- ما نقله العلامة المجلسى عن كتاب إكمال الدين:

(عن الصادق عليه السلام أن الله تبارك وتعالى علم آدم عليه السلام أسماء حجج الله كلها ثم عرضهم وهم أرواح على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين أنكم أحق بالخلافة فى الأرض لتسبيحكم وتقديسكم من آدم قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم قال الله تبارك وتعالى يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنباهم بأسمائهم وقفوا على عظيم منزلتهم عند الله تعالى ذكره فعلموا أنهم أحق بأن يكونوا خلفاء الله فى أرضه وحججه على بريته ثم غيَّبهم عن أبصارهم واستعبدهم بولايتهم ومحبتهم وقال لهم ألم اقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون).(۲۱)

ما نقله العلامة المجلسى عن تفسير فرات ابن إبراهيم الكوفى:

(عن أبى عبد الله عليه السلام قال إن الله تبارك وتعالى كان ولا شئ فخلق خمسة من نور جلاله واشتق لكل واحد منهم اسما من أسمائه المنزلة فهو الحميد وسمّانى محمَّدا وهو الأعلى وسمى أمير المؤمنين عليا وله الأسماء الحسنى فاشتق منها حسنا وحسينا وهو فاطر فاشتق لفاطمة من أسمائه فلما خلقهم جعلهم الميثاق عن يمين العرش وخلق الملائكة من نور فلما أن نظروا إليهم عظموا أمرهم وشأنهم ولقنوا التسبيح فذلك قوله تعالى وإنا لنحن الصافون وإنّا لنحن المسبحون فلما خلق الله تعالى آدم عليه السلام نظر إليهم عن يمين العرش فقال يا رب من هؤلاء قال يا آدم هؤلاء صفوتى وخاصتى خلقتهم من نور جلالى وشققت لهم اسما من أسمائى قال يا رب فبحقك عليهم علمنى أسماءهم قال يا آدم فهم عندك أمانة سرّ من سرِّى لا يطَّلع عليه غيرك إلا بإذنى قال نعم يا رب قال يا آدم أعطنى على ذلك العهد فاخذ عليه العهد ثم علمَّه أسماءهم ثم عرض على الملائكة ولم يكن علمهم بأسمائهم فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال و أوفوا بولاية على عليه السلام فرضا من الله أوف لكم بالجنَّة).(۲۲)

أقول: يستفاد من هذا الحديث أنَّ الملائكة كانوا قد شاهدوا هذه الأنوار قبل أن يُخلق آدم عليه السلام و ذلك بعد أن خلقهم الله حيث ورد فى الحديث:

(وخلق الملائكة من نور فلما أن نظروا إليهم عظَّموا أمرهم وشأنهم ولقنوا التسبيح فذلك قوله تعالى وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون).

فكانوا يعرفون شأنهم ومرتبتهم عند الله ولكنَّهم لم يتوقَّعوا أنَّ هناك علاقة بينهم وبين خلق آدم عليه السلام ومن هنا نشاهد أنَّهم وبمجرَّد أن عَرفوا أسمائهم وصلوا إلى القناعة الكاملة وقالوا: (سبحانك لا علم لنا إلّا ما علَّمتنا إنَّك أنت العليم الحكيم).

ولعلَّهم أشاروا بقولهم هذا أنَّه لا علم لنا أنَّ خلق آدم عليه السلام له علاقة بتلك الأنوار التى رأيناها سابقاً ولو كنّا نعلم ذلك لما اعترضنا أصلاً.

والجدير بالذكر أنَّه ورد حديث فى الكافى الشريف يقول:

(محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد عن محمد بن أبى عمير أو غيره عن محمد بن الفضيل عن أبى حمزة عن أبى جعفر عليه السلام قال قلت له جعلت فداك إن الشيعة يسألونك عن تفسير هذه الآية عمَّ يتساءلون عن النبأ العظيم قال: ذلك إلىَّ، إن شئتُ أخبرتهم وإن شئت لم أخبرهم ثم قال: لكنِّى أخبرك بتفسيرها قلت عمَّ يتساءلون قال: فقال هى فى أمير المؤمنين صلوات الله عليه كان أمير المؤمنين صلوات الله عليه يقول ما لله عز و جل آيه هى أكبر منى و لا لله من نبأ أعظم منى).(۲۳)

والحديث ينطبق مع ما نحن فيه حيثُ أنَّ الولاية العظمى هى التّى كانت السبب لخلق آدم عليه السلام ومن هنا قال: (أنبأهم بأسمائهم).

غيب السموات والأرض

هذا: وبعد أن أنباهم آدم بأسمائهم عليهم السلام: (قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات و الأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) والظاهر أنَّ علم الله بغيب السموات والأرض هو نفس العلم الذى جاء فى الآية ۳۰ حيث قال إنِّى أعلمُ ما لا تعلمون.

ومن هنا يُعلم أنَّ تلك المسمَّيات الخاصَّة التّى عرضت على الملائكة هى أمور غيبية عن العوالم المختلفة السماوية والأرضية، وهى على ما ذكرنا أرواحُ أئمتنا الأطهار عليهم السلام حيث أنَّها فوق السموات والأرض وفوق جميع الموجودات حيث أنَّ جميع الموجودات تُعدُّ من عالم الخلق، وأمّا تلك الأرواح فهى من عالم الأمر والمشيئة كما لاحظت فى تعبير الإمام قدس سرُّه فتأمَّل فى ذلك.

ولعلَّ الرواية الأولى تشير إلى هذا الأمر حيث جاء فيها:

(علم آدم الأسماء كلها ما هى قال أسماء الأودية والنبات والشجر والجبال من الأرض) وهذا التعبير يُشير إلى أنَّ تلك الأسماء لم تكن

من الأرض بل هى غيب الأرض.

علم الغيب:

هذا: وينبغى لنا أن نتحدَّث ولو باختصار حول علم الغيب فنقول:

إنَّ هناك تعابير مختلفة فى القرآن الكريم تتعلَّق بغيب السماوات والأرض.

ألف: أنّ الله عالم بغيب السماوات والأرض وهى ثلاث آيات:

١- (قال ألم اقل لكم إنى أعلم غيب السموات و الأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون).(٢۴)

٢- (إن الله عالم غيب السماوات و الأرض إنه عليم بذات الصدور).(٢۵)

٣- (إن الله يعلم غيب السماوات و الأرض والله بصير بما تعملون).(٢۶)

ب: أنَّ غيب السماوات والأرض لله خاصَّة وهى أيضاً ثلاث آيات:

١ - (ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون).(٢٧)

٢- (ولله غيب السماوات والأرض و ما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إنَّ الله على كل شىء قدير).(٢٨)

٣- (قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السماوات و الأرض أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولى و لا يشرك فى حكمه أحدا).(٢٩)

فهل يمكن للآخرين أن يطلِّعوا على علم الغيب أم لا؟ فماذا يعنى إذاً قوله تعالى:

(عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلّا من ارتضى من رسول فإنَّه يسلك من بين يديه و من خلفه رصدا).(٣٠)

لا يهمنا البحث عنه هنا حيث أنَّه لا يتعلق بما نحن بصدد بيانه.

ماذا كانت الملائكة تكتمه؟

وأمّا قوله تعالى وأعلم ما تُبدون وما كنتم تكتمون وما كانوا يبدونه فواضح وأمّا الذى كانوا يكتمونه فغير معلوم إلّا أنَّ هناك حديث عن الإمام السجاد عليه السلام يبيّن لنا ذلك وهو:

(قال عليه السلام:.. وما كنتم تكتمون ظناً أنّ لا يخلق الله خلقاً أكرم عليه منّا).(٣١)

وهذا الكلام لا يُنافى ما كانوا يعلمونه سابقاً من خلق الأنوار كما مرَّ لأنَّهم فى كلامهم هذا يُشيرون إلى عالم الخلق لا عالم الأمر حيث أنَّ الملائكة من عالم الخلق فلم يكونوا يتوقَّعون أن يخلق الله خلقاً أكرم عليه منهم فيأمرهم بالسجود له ففوجئوا بذلك.

الفصل الثانى: السجود لآدم عليه السلام

والظاهر أنَّ كل ما جرى بين الله والملائكة لم يكن إلّا تمهيداً لأمرٍ واحدٍ وهو السجود لآدم عليه السلام، لا لأنَّه آدم بل لأنَّه مَجرىً للخلافة الإلهيَّة ومحلاً للفيض الربّانى، فالسجود فى الواقع كان لله سبحانه وتعالى فإنَّ أحاديثنا الشريفة تُبيِّن لنا حقيقةَ الأمر فى ذلك:

(ففى رواية عن إمامنا موسى بن جعفر عليه السلام عن أبيه عن آبائه عن الحسين بن على عليه السلام (فى رواية طويلة حول أسئلة سألها يهودى من أمير المؤمنين عليه السلام فقال على فى جواب إحدى تلك الأسئلة) ولئن اسجد الله آدم ملائكته فان سجودهم لم يكن سجود طاعة أنَّهم عبدوا آدم من دون الله عز وجل ولكن اعترفوا لآدم بالفضيلة ورحمة من الله له).(٣٢)

ولم يأمر الله ملائكته بالسجود لآدم إلّا بعد أن سوّاه ونفخ فيه من روحه حيث يقول:

(وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمأٍ مسنون فإذا سويتُه ونفختُ فيه من روحى فقعوا له ساجدين).(٣٣)

ففى الواقع لم يكن السجود لجسم آدم بل إنَّما هو لروحه المنتسب إلى الله تعالى وهو من أمر الله (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا).(٣۴)

وهناك أحاديث دالَّة على ذلك قد ذكرها المحدِّث الكلينى رضوان الله تعالى عليه ننقل ثلاثة منها:

۱- (عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن خالد عن أبيه عن عبد الله بن بحر عن أبى أيوب الخزاز عن محمد بن مسلم قال سألت أبا جعفر عليه السلام عما يروون إن الله خلق آدم على صورته فقال هى صوره محدثه مخلوقه واصطفاها الله واختارها على سائر الصور المختلفة فأضافها إلى نفسه كما أضاف الكعبة إلى نفسه و الروح إلى نفسه فقال بيتى ونفخت فيه من روحى).(۳۵)

۲- (محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد عن محمد بن خالد عن القاسم بن عروه عن عبد الحميد الطائى عن محمد بن مسلم قال سالت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل ونفخت فيه من روحى كيف هذا النفخ؟ فقال إن الروح متحرك كالريح و إنما سمى روحا لأنه اشتق إسمه من الريح وإنما أخرجه عن لفظة الريح لأن الأرواح مجانسة الريح و إنما أضافه إلى نفسه لأنه اصطفاه على سائر الأرواح كما قال لبيت من البيوت بيتى ولرسول من الرسل خليلى وأشباه ذلك وكل ذلك مخلوق مصنوع محدث مربوب مدبَّر).(۳۶)

والظاهر أنَّ المراد من التصوير أيضاً ذلك حيث أنّه لا يُطلق على الإنسان إنسان إلّا بعد أن تكتمل صورته الإنسانيَّة (لأنَّ شيئيَّة الشىء بصورته لا بمادته تأمَّل) وهذه الصورة تمثِّل ذلك الروح ومن هنا قال سبحانه وتعالى:

(ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين).(۳۷)

ومن هنا تعرف السرّ فى الحديث الأوَّل من الأحاديث الثلاثة الّتى ذكرناها من كتاب الكافى الشريف:

(...محمد بن مسلم قال سألت أبا جعفر عليه السلام عما يروون إن الله خلق آدم على صورته..).(۳۸)

وللإمام قدِّس سرُّه شرح عميق ومختصر لهذا الحديث فى كتابه القيِّم الأربعون حديثاً الحديث ۳۸ فراجع.

ولا بأس بذكر بعض النقاط الّتى ذكرها إمام الأمَّة هناك مع تلخيص:

قال: (ويستفاد ممّا ذكرناه أنَّ الإنسان الكامل مظهر الاسم الجامع، ومرآة تجلِّى الاسم الأعظم).

ثمَّ ذكر آية الأمانة الّتى شرحناها سابقاً وقال:

(وتكون الأمانة لدى العرفاء الولاية المطلقة الّتى لا يليق بها غير الإنسان، وقد أشير إليها فى القرآن الكريم بقوله تعالى: كلُّ شىء هالك إلّا وجهه)

وفى كتاب الكافى بسنده:

(عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد عن ابن أبى نصر عن محمد بن حمران عن أسود بن سعيد قال كنت عند أبى جعفر عليه السلام فانشأ يقول ابتداء منه من غير أن أساله نحن حجه الله ونحن باب الله ونحن لسان الله ونحن وجه الله ونحن عين الله فى خلقه ونحن ولاة أمر الله فى عباده).(۳۹)

وفى دعاء الندبة

(أين وجه الله الذى يتوجَّه إليه الأولياء؟ أين السبب المتصل بين الأرض والسماء)

وفى زيارة الجامعة

(والمثل الأعلى)

وهذا المثل الأعلى وذلك الوجه الإلهى هو الوارد فى الحديث الشريف: (إنَّ الله خلق آدم على صورته) ومعناه أنَّ الإنسان هو المثل الأعلى للحق سبحانه، وآيته الكبرى، ومظهرها الأتم، وأنَّه مرآةٌ لتجلِّى الأسماء والصفات وأنَّه وجه الله وعين الله ويد الله وجنب الله.

انتهى كلامه رُفع فى الخلد مقامه.

إبليس ليس من الملائكة

إنَّ الخصال الباطنيَّة لإبليس هى الّتى جرَّته إلى عدم إطاعة أمر الله بالسجود لآدم عليه السلام وأساس ذلك هو الكفر بالله سبحانَّه فهو الذى أدَّى إلى الاستكبار والإباء من السجود والفسق عن أمر ربِّه، وبذلك يمكننا الجمع بين الآيات الثلاثة وهى:

ألف: (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلّا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين).(۴۰)

ب: (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى).(۴۱)

ج: (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه).(۴۲)

أقول:

الظاهر أنَّ الآيـة الأخيرة لا تريد القول بأنَّ كلَّ من كان من الجنِّ فهو فاسق، كيف وهناك نفرٌ منهم آمنوا بالرسول صـلى الله عليه وآله وقـد تحـدَّث عنهم القرآن بالتفصـيل فى سورة الجنّ، بـل أنَّه تعالى حيث ذكر الملائكـة قبل ذلك وبيَّن أنَّهم أُمروا بالسـجود للإنسان ومن خصوصـيّاتهم أنّهم لاـ يسـبقونه بـالقول وهم بـأمره يعملون، حيث أنَّهم عقول محضـة لاـ تعتريها الهوى والشـهوة، فربّما يسـتغرب السامع من عـدم إطاعـة إبليس فأراد الله سـبحانه أن يـدفع هذا الوهم المُقدَّر فقال: (كان من الجنّ ففسق عن أمر ربِّه) وقد فرَّع سـبحانه الفسوق على كونه من الجنّ حيث أنَّه كان مخيَّراً بين الإطاعة وعدمها. فالاسـتثناء ليس مُتصِّلاً بل هو منفصل فيه لطافةٌ أدبيَّة يصل إليها المتأمِّل، والحديث التالى دليل على ذلك:

(ففى تفسير على بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبى عمير عن جميل عن أبى عبد الله عليه السلام قال.. كان إبليس منهم بالولاء و لم يكن من جنس الملائكة).(۴۳)

والحاصـل أنَّ جميع الملائكـة بلاـ اسـتثناء سـجدوا لآـدم عليه السـلام إلاّـ إبليس حيث كان كافراً من قبل إلاّ أنَّه كان يكتُم كفره فأبى واستكبر حينما أُمر بالسجود:

(وعن أبى عبد الله عليه السلام قال فلما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم أخرج ما كان فى قلب إبليس من الحسد).(۴۴)

ومن ثمَّ صار الكفر أقدم من الشرك (ففى الكافى الشريف بإسناده عن مسعدة قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام... إلى أن قال وسئل عن الكفر والشرك أيهما أقدم فقال الكفر أقدم و ذلك إنَّ إبليس أوَّل من كفر و كان كفره غير شرك لأنه لم يدع إلى عبادة غير الله و إنما دعا إلى ذلك بعد فأشرك).(۴۵)

وأوَّل ما عصى به الله من الذنوب هو الكبر

(فقال على بن الحسين عليه السلام ... فأوَّل ما عصى الله به الكبر وهى معصية إبليس حين أبى و استكبر وكان من الكافرين).(۴۶)

خلقتُ بيدَىّ!

والجدير بالذكر ما ورد فى الآية المباركة حيث عاتب الله سـبحانه إبليسَ (قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى استكبرت أم كنت من العالين).(۴۷)

الهوامش

---

(۱) بحار الأنوار ج ۳۹ ص ۴۸ رواية ۱۵ باب۷۳. (۲) بحار الأنوار ج ۱۱ ص ۱۳۷ رواية ۱ باب ۲، ج ۲۱ ص ۲۲۷ رواية ۶ باب ۲۹، ج ۲۶ ص ۳۳۸ رواية ۴ باب ۸. (۳) الكافى ج ۱ ص ۴۴۳ رواية ۱۵. (۴) بحـار الأنوار ج ۱۶ ص ۴۰۶ رواية ۱ باب ۱۲، ج ۴۰ ص ۲۰ رواية ۳۶ باب ۱۹. (۵) بحار الأنوار ج ۱۵ ص ۲۴ رواية ۴۳ باب ۱، ج ۲۵ ص ۲۱ رواية ۳۷ باب ۱، ج ۵۷ ص ۱۷۰ رواية ۱۱۶ باب ۱. (۶) مصباح الهداية إلى الخلافة و الولاية ص ۱۰۵. (۷) الكافى ج ۱ ص ۴۴۱ رواية ۹. (۸) الأعراف ۵۴. (۹) بحار الأنوار ج ۱۰۰ ص ۱۸۳ رواية ۱۱ باب ۲. (۱۰) البقرة ۳۲. (۱۱) البقرة ۳۳. (۱۲) الشعراء ۶. (۱۳) الأنعام ۳۴. (۱۴) الأنعام ۶۷. (۱۵) يونس ۷۱. (۱۶) ص: ۶۷. (۱۷) التغابن ۵. (۱۸) الأعراف ۱۰۱. (۱۹) الحجر ۴۹. (۲۰) الكهف ۷۸. (۲۱) بحار الأنوار ج ۱۱ ص ۱۴۵ رواية ۱۵ باب ۲، ج ۲۶ ص ۱۸۳ رواية ۳۸ باب ۶. (۲۲) بحار الأنوار ج ۳۷ ص ۶۲ رواية ۳۱ باب ۵۰. (۲۳) الكافى ج۱ ص۲۰۷ رواية۳. (۲۴) البقرة ۳۳. (۲۵) فاطر ۳۸. (۲۶) الحجرات ۱۸. (۲۷) هود ۱۲۳. (۲۸) النحل ۷۷. (۲۹) الكهف ۲۶. (۳۰) الجن ۲۶. (۳۱) قد مرّ فى الهامش رقم ۶. (۳۲)

بحار الأنوار ج ۱۰ ص۲۹ روایة۱ باب۲. (۳۳) الحجر ۲۸،۲۹. (۳۴) الإسراء ۸۵. (۳۵) الکافی ج ۱ ص ۱۳۴ روایة ۴. (۳۶) الکافی ج ۱ ص ۱۳۳ روایة ۳. (۳۷) الأعراف ۱۱. (۳۸) الکافی ج ۱ ص ۱۳۴ روایة ۴. (۳۹) الکافی ج ۱ ص ۱۴۵ روایة ۷. (۴۰) البقرة ۳۴. (۴۱) طه ۱۱۶. (۴۲) الکهف ۵۰. (۴۳) بحار الأنوار ج۶۳ ص۲۳۴ روایة۷۳ باب۳-ج۶۳ ص۲۷۳ روایة ۱۶۰ باب۳. (۴۴) بحار الأنوار ج ۶۳ ص ۲۳۴ روایة ۷۳ باب ۳. (۴۵) الکافی ج ۲ ص ۳۸۶ روایة ۸. (۴۶) الکافی ج ۲ ص ۳۱۷ روایة ۸. (۴۷) ص ۷۵.

فقد بیَّن سبحانه میزةً خاصَّةً فی خلق آدم حیث قال خلقت بیدی.

قال الإمام قدِّس سرُّه نقلاً عن العارف الکامل کمال الدین عبد الرزاق الکاشانی فی تأویلاته:

(الإنسان هو الکون الجامع الحاصر لجمیع مراتب الوجود فربُّه الذی أوجده فأفاض علیه کماله، هو الذات باعتبار جمیع الأسماء بحسب البدایـة المُعبَّر عنه بالله، ولهـذا قال تعالی: ما منعک أن تسـجد لما خلقت بیـدی بالمتقابلین کاللطف والقهر والجلال والجمال الشاملین لجمیعها انتهی).(۱)

أقول:

وأمّا سائر الموجودات فقـد خُلقت بیـدٍ واحدة إمّا ید الجلال أو ید الجمال فالملائکة مثلاً مظاهر جمال الله سـبحانه، وکذلک کثیر من النباتات والجمادات کما أنَّ قسم من الجمادات والحیوانات قد تجلَّی فیها الجلال وأمّا الإنسان فهو الکون الجامع (وفیک انطوی العالم الأکبر) ثمَّ إنَّ قوله تعالی ما منعک؟ عتابٌ وهـذا العتاب یدلُّ علی أنَّ إبلیس کان عالماً بخصوصـیّات آدم علیه السـلام وکان یعلم أنَّه لابدَّ أن یخضع له بالسجود حتَّی لو لم یکن هناک أمرٌ إلهی ناهیک عمّا لو کان أمرٌ فی البین کما هو کذلک.

من هم العالون؟

موقف إبلیس السلبی تجاه أمر الله وعدم سجوده لآدم علیه السلام لا یخلو من أحد الوجهین:

ألف: أنَّه نابع عن الروحیَّة الاستکباریة الکامنة فیه أستکبرت وکان کذلک.

ب: أنَّه ممن لم یُطلب منه أن یسجد لآدم لعلوِّه وسموِّ مرتبته أم کنت من العالین.

وهاهنا سؤال یطرح نفسَه وهو: من هم العالون؟

ومن المعلوم أنَّ العالین هم الـذین من أجلهم قد أمر الله أن یَسـجد الملائکة لآدم علیه السـلام ولولاهم لم یخلق الله آدما ولا کان زید فی الوجود ولا عمر وهذا واضح عند التمعُّن فی ما ذکرنا سابقاً، علی أنَّ هناک حدیثٌ نقله الشـیخ الصدوق رحمه الله فی کتابه کتاب فضائل الشیعة:

(باسـناده عن أبی سـعید الخـدری قال: کنا جلوسا مع رسول الله صـلی الله علیه وآله وسـلم إذ اقبل إلیه رجل فقال یا رسول الله أخبرنی عن قول الله عز و جل لإبلیس اسـتکبرت أم کنت من العالین فمن هم یا رسول الله الذین هم أعلی من الملائکة؟ فقال رسول الله صـلی الله علیه وآله وسـلم: أنا وعلی وفاطمة والحسن والحسین کنا فی سرادق العرش نسبح الله وتسبح الملائکة بتسبیحنا قبل أن یخلق الله عز وجل آدم بألفی عام، فلما خلق الله عز وجل آدم أمر الملائکة أن یسـجدوا له ولم یأمرنا بالسجود فسجدت الملائکة کلهم أجمعون إلا إبلیس فانه أبی أن یسـجد فقال الله تبارک وتعالی استکبرت أم کنت من العالین أی من هؤلاء الخمس المکتوب أسماؤهم فی سرادق العرش الخبر).(۲)

وقد نقل فی کتاب کنز العمال أیضاً.

إبلیس یبرِّر موقفَه

من خصوصـیات العبد المؤمن أن یُسلِّم جمیع أموره إلی مولاه ویعلم أنَّه لا یملک لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حیاةً ولا نشوراً، فهو الفقیر بالـذات کما أنَّ ربَّه هو الغنی بالذات فالتساؤل والتردُّد فی قبال أوامره تعالی دلیل علی عدم الإیمان به فکیف بالوقوف ومحاولة تبریر الموقف وتوجیه الجریمة وذلک بالقیاس الباطل، وهذا ما صدر من إبلیس وعلَّم أولیاءه حیث اعتمدوا علی نفس الأسـلوب فانظر

إلى طريقة توجيه إبليس ومستوى جهله بل تجاهله

(قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين)(۳) (قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين* قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون، قال فاخرج منها فإنك رجيم).(۴)

وإطلاق كلمة بشر يدلُّ على أنَّ إبليس تغافل عن الجانب الإنسانى والنورانى فيه وقايس ما خُلق به هو النار ما خلق به آدم الطين ومن الطبيعى أنَّ هذا النمط من القياس ليس صحيحاً من جهات شتَّى:

منها: ما ورد الإشارة إليها سابقاً من أنَّ اللازم على العبد تسليم جميع أموره إلى مولاه لا ينحرف عنه قيد أنملة لأنَّ دينَ الله لا يُصاب بالعقول وقد وردت أحاديث كثيرة فى ذلك نكتفى بحديثين منها:

(ابن عصام عن الكلينى عن القاسم بن العلاء عن إسماعيل بن على عن ابن حميد عن ابن قيس عن الثمالى قال قال على بن الحسين عليه السلام عليه السلام: إن دين الله لا يصاب بالعقول الناقصة و الآراء الباطلة و المقاييس الفاسدة و لا يصاب إلا بالتسليم فمن سلم لنا سلم و من اهتدى بنا هدى ومن دان بالقياس و الرأى هلك..).(۵)

ومن المعلوم أنَّ الدين لا يُراد منه العبادات والمعاملات فحسب بل يشمل جميع القضايا التّى تمسُّ الدين فليس للعقول طريق للوصول إلى كنهها ومحتواها، والدليل عليه الحديث التالى:

(محمد بن الحسن القطان عن عبد الرحمن بن أبى حاتم عن أبى زرعه عن هشام بن عمار عن محمد بن عبد الله القرشى عن ابن شبرمه قال: دخلت أنا وأبو حنيفه على جعفر بن محمد عليه السلام فقال لأبى حنيفة اتق الله ولا تقس الدين برأيك فان أول من قاس إبليس أمره الله عز وجل بالسجود لآدم فقال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ثم قال أتحسن أن تقيس رأسك من بدنك قال لا قال جعفر عليه السلام: فأخبرنى لأى شئ جعل الله الملوحة فى العينين والمرارة فى الأذنين والماء المنتن فى المنخرين والعذوبة فى الشفتين قال لا أدرى..الخ الحديث).(۶)

ونفس الحديث بتفصيل آخر وأمثلة أخرى نقله صاحب كتاب دعائم الإسلام فراجع.(۷)

ولا يخفى على القارئ الكريم أنّنا لا نريد القول ببطلان الاستنتاج العقلى بنحو مطلق حتّى ما اعتمد عليه علماء الأصول من الحسن والقبح العقليّين فإنَّ ذلك بابٌ آخر لا مجالَ للحديث عنه هنا فراجع مظانّه.

منها: أنَّ الله سبحانه يمكنه أن يخلق الأشياء لا من شيء أصلاً فالطين والنار ليس لهما دور فى مستوى المخلوق منهما ولا علاقة كبيرة بين المخلوق والمخلوق منه، نعم هناك آثار خاصَّة لخصوص جسم كلٍّ منهما، ومن هنا نشاهد سرعة انتقال الجنّ ودخولهم وخروجهم وحركتهم بحيث لا يمكن رؤيتهم بسهولة، حتى أنَّه تعالى فى معجزة العصى شبَّه سرعة العصى واهتزازها بالجان:

(وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان..).(۸)

لو قلنا أنَّ الآية تعنى الجن

كلُّ ذلك لأنَّ الجن قد خُلق من النار والنار سريع الانتقال دون الإنسان الذى خُلق من الطين، ولكن ليست هذه فضيلة فى الجنّ مادام أنَّه لا يملك ما يملكه الإنس، ومن هنا نشاهد أنَّ الإنسان لو أراد أن يستغلَّ روحانيته ونورانيته استغلالاً صحيحاً لتمكَّن من الوصول إلى مستويات من الرقى والعلوّ والنورانيَّة ما لا يخطر ذلك لدى الملائكة المخلوقين من النور ناهيك عن الجنّ ولهذا نشاهد وصول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم فى عروجه إلى مرحلةٍ بحيث

(قال جبرئيل تقدَّم يا رسول الله ليس لى أن أجوز هذا المكان و لو دنوت أنملة لاحترقت).(۹)

يقول سبحانه وتعالى عنه:

(ثمَّ دنى فتدلَّى فكان قاب قوسين أو أدنى).(۱۰)

وقد وردت الأحاديث الكثيرة التّى تُفضِّل الإنسان المؤمن على الملائكة وأنَّ:

(الملائكة خدام المؤمنين)(۱۱) (وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضىً به)(۱۲) (وإذا مات المؤمن بكت عليه الملائكة).(۱۳)

منها: أنَّه ما الـدليل على أفضـليَّة النار على الطين بل ربَّما تكون القضـيَّة بالعكس كما ثبت علمياً أهميَّة الطين من نواحٍ مختلفة والجدير بالذكر أنَّه لولا الطين لما أمكن للخبراء أن يُسيطروا على آبار النفط حين حفرها !! فتأمَّل فى نتائج ذلك.

ثمَّ إنَّ هناك آيةً تدلّ على مستوى عداوة إبليس لآدم وذريتَه:

(قال أ رأيتك هذا الذى كرمت علىَّ لئن أخرتن إلى يوم القيامةِ لأحتنكنَّ ذريته إلا قليلا).(۱۴)

وفى اللغة حنك: يجوز أن يكون من قولهم حنكت الدابة أصبت حنكها باللجام والرسن ... . فيكون معناه لأستولين عليهم.

الفصل الثالث: العهد الإلهى لآدم عليه السلام

(وَلَقد عَهِدنا إلى آدم مِن قبل فنسى ولم نجد له عزما)

ما هو ذلك العهد؟ قيل: أنه قوله تعالى:

(لا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين).(۱۵)

ويحتمل أن يكون العهـد: هو عـدم سـماع مقولـة إبليس وعدم التأثر بإضـلاله الشـيطانى كما تدلُّ عليها بعض الروايات أيضاً فهى التّى نَسيها آدم.

وقال العلامة الطباطبائى قدس سرُّه فى الميزان:

وهذا الاحتمال غير صحيح لقوله تعالى:

(فوسوس لهما الشـيطان وقال ما نهاكما ربُّكما عن هـذه الشـجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالـدين وقاسـمهما إنِّى لكما لمن الناصحين).(۱۶)

فهما حينما اقتربا إلى الشجرة كانا يذكران ذلك النهى ولم ينسياه.

ثمَّ: إنَّه قدس سرُّه ذكر احتمالاً آخرَ فى هذا المجال وقوّاه.

ملخَّصُه: أنَّ العهـد بمعنى الميثاق الـذى أخـذه الله من بنى آدم عامَّة ومن الأنبياء خاصـة وبوجه آكد، وهو أن لا ينسـى الإنسان فى أىِّ حالـة من الحالات ربَّه وخالقَه ويكون دائماً على ذُكر من ذلك فإنَّ نسيان ذلك يُؤدِّى إلى أن يبتلى بالحياة الدنيا ويعانى أنواع التعب والعناء حيث أنَّه يرى الأشـياء أموراً مُستقلَّة لها أضرار ومنافع وينبع منها الخير والشرّ ومع هذه الرؤية نراه يتقلَّب بين الخوف عمّا يخاف فوته والحـذر من الخطر والحزن على ما فات والتحسُّر مما افتقـده من المال والمنصب والبنون. وفى هذه الحيوة الدنيا كلَّما نضج جلدُه واعتاد بمكروه يُبدِّل إلى جلدٍ آخر ليـذوق العـذاب، فمن وقع فى الـدنيا واتَّبع هـدى الله فبطبيعـة الحال ينجو من هذه الآلام ولهذا نراه سبحانه يُعقِّب تلك الآيات بقوله:

(فإمّا يأتينكم منِّى هدىً فمن تبع هداى فلا يضلُّ ولا يشقى).(۱۷)

وهذه الهداية تتمركز فى ذكر الله على كلِّ حال وعدم نسيانه تعالى، وفى قبال ذلك:

(ومن أعرض عن ذكرى فإنَّ له معيشةً ضنكاً).(۱۸)

ومن هنا يُعلم أنَّ اقتراب تلك الشـجرة كان يؤدِّى إلى التعب والشـقاء الـذى يحصل من العيش فى الدنيا ناسـياً للربِّ تعالى(۱۹) انتهى كلام العلامة مع تلخيص وتنقيح.

وللإمام قدِّس سره فى هذا الأمر كلام سوف نبيِّنه فى البحث حول الشجرة المنهية إنشاء الله.

أقول:

ومما بيَّنه العلامة نستنتج أنَّ نار الجحيم كامن فى هذه الدنيا كما عبَّر إمامنا بذلك أيضاً.

العهد والولاية

وقد وردت روايات تُبيِّن المراد من هذا العهد نذكر ثلاثة منها:

أحدها:

(الحسين بن محمَّد عن المعلَّى عن جعفر بن محمَّد بن عبيد الله عن محمَّد بن عيسى القمى عن محمَّد بن سليمان عن عبد الله بن سنان عن أبى عبدالله عليه السلام فى قوله ولقد عهدنا إلى آدم من قبل كلمات فى محمَّد وعلى وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من ذرِّيتهم فنسى.).(۲۰)

ثانيها:

(عن سعد عن ابن عيسى عن على بن الحكم عن المفضَّل بن صالح عن جابر بن يزيد عن أبى جعفر عليه السلام فى قول الله عزَّ وجلَّ ولقد عهدنا آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما قال عَهِد إليه فى محمَّد والأئمة من بعده فترك ولم يكن له عزم فيهم انَّهم هكذا.).(۲۱)

ثالثهما:

(أحمد بن محمَّد عن على بن الحكم عن داود العجلى عن زرارة عن حمران عن أبى جعفر عليه السلام قال إن الله تبارك وتعالى حيث خلق الخلق خلق ماءاً عذباً وماءاً مالحاً أجاجا فامتزج الماءان....إلى أن قال عليه السلام ثم أخذ الميثاق على النبيِّين فقال ألست بربِّكم ثمَّ قال وإن هذا محمَّد رسول الله وإن هذا على أمير المؤمنين قالوا بلى فثبتت لهم النبوة وأخذ الميثاق على أولى العزم إنى ربُّكم ومحمَّدٌ رسول الله وعلىٌّ أمير المؤمنين وأوصياؤه من بعده ولاة أمرى وخزّان علمى وأنَّ المهدىَّ أنتصر به لدينى وأظهر به دولتى وأنتقم به من أعدائى وأُعبدُ به طوعاً وكرهاً قالوا أقررنا وشهِدنا يا ربِّ ولم يجحد آدم ولم يقرَّ فثبتت العزيمةُ لهؤلاء الخمسة فى المهدىِّ ولم يكن لآدم عزم على الإقرار به وهو قوله عزَّ وجلَّ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما).(۲۲)

أقول:

إنَّ ذكرَ الله لا يتحقق إلّا مع ذكر الأئمة عليهم الصلاة والسلام وخصوصاً الإمام الحاضر الحجة ابن الحسن العسكرى سلام الله عليه الذى هو إمام الزمان والعصر وما يتحقق فيهما، فهو إذاً الواسطة للفيوضات الإلهيَّة إلى الخلق ولولاه لما خُلقت الأفلاك ولما نزل الغيث ولوقعت السماء على الأرض إلّا بإذنه ولولاه لما كُشف الغمُّ ولما ذهب الهمُّ وهذه هى الولاية التكوينيَّة الثابتة لهم وله عليهم السلام عقلاً ونقلاً المشارة إليها فى الرواية بقوله (أنَّهم هكذا) ولهذا نرى فى ذيل الرواية الثانية عندما ذكر إمامُنا الباقر عليه السلام العلةَ التِّى من أجلها صار بعضُ الأنبياء أولى العزم أكَّدَ على خصوص المهدى عليه السلام وسيرته المميزة النابعة من ولايته التكوينيَّة قال عليه السلام:

(وإنما سمى أولو العزم لأنَّهم عهد إليهم فى محمَّد والأوصياء من بعده والمهدى وسيرته فاجمع عزمهم إن ذلك كذلك والإقرار به).(۲۳)

وقال الراغب العهد حفظ الشيء ومراعاته حالا بعد حال وسمى المَوثق الذى يلزم مراعاته عهداً.

والجدير بالذكر أنَّ أكثر الموارد لكلمه العهد ومشتقاتها المذكورة فى القرآن الكريم تنطبق على الأئمة المعصومين عليهم السلام.

وفى هذا المجال هناك روايات كثيرة وردت فى تبين العهد المذكور فى القرآن ضمن الآيات المختلفة نذكر ثلاثة منها كنموذج لذلك:

۱- (المناقب قال روينا حديثا مسنداً عن أبى الورد عن أبى جعفر عليه السلام قال قوله عز و جل أ فمن يعلم إنما انزل إليك من ربك الحق هو على بن أبى طالب والأعمى هنا هو عدوُّه و أولوا الألباب شيعته الموصوفون بقوله تعالى الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون

الميثاق المأخوذ عليهم فى الذرّ بولايته ويوم الغدير).(۲۴)

۲- (من كتاب محمَّد بن العباس بن مروان عن محمَّد بن هشام بن سهيل العسكرى عن عيسى بن داود النجَّار عن أبى الحسن موسى بن جعفر عن أبيه فى قول الله جلّ وعزّ وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا وأوفوا الكيل إذا كلتم و زنوا بالقسطاس المستقيم قال العهد ما اخذ النبى صلى الله عليه وآله وسلم على الناس فى مودتنا و طاعة أمير المؤمنين أن لا يخالفوه ولا يتقدموه).(۲۵)

۳- (احمد بن محمَّد الشيبانى عن محمَّد بن احمد بن معاوية محمَّد بن سليمان عن عبد الله بن محمَّد التفليسى عن الحسن بن محبوب عن صالح بن رزين عن شهاب بن عبد ربِّه قال سمعت الصادق عليه السلام ؟ ؟ يقول يا نحنُ شجرةُ النبوَّة و معدن الرسالة.... فمن وفى بذمتنا فقد وفى بعهد الله عزَّ و جلَّ و ذمته و من خفر ذمتنا فقد خفر ذمه الله عز وجل وعهده).(۲۶)

وفى القاموس:خفر به خفراً وخفوراً نقضَ عهده وغدره كأخفره.

أجر الرسالة

أقول:

ثمَّ إنه لا- شك أنهَّم عليهم السلام ذوى قُربى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأجر الرسالة مُنحصرةٌ فى مودَّتِهم عليهم السلام لقوله تعالى:

(قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودَّةَ فى القُربى).(۲۷)

وقال تعالى فى توصيف الفاسقين: (الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل..).(۲۸)

فنحن حتى لو قلنا أن الآية بصدد بيان تعاهد الأرحام والقرابات فأفضل رحم وأوجبه حقاً رحمُ محمد صلى الله عليه وآله وسلم فإنّ حقهم بمحمّد كما أن حق قرابات الإنسان بأبيه وفى هذا المعنى وردت أحاديث كثيرة لا مجال لنقلها هنا فراجع مظانَّها.

ثمَّ إنَّ هاهنا تشاجر طويل حول المقصود من نسيان آدم لا يخصُّنا التعرض له تفصيلاً إلا أنَّنا نذكر ما بيَّنه بعضُ المفسرين فى هذا المجال وذلك فى ذيل الآية المباركة فى سورة الكهف حيث قال:

فأما قوله لا تؤاخذنى بما نسيت فقد ذكر فيه وجوه ثلاثة:(إلى أن قال) والوجه الثانى: انَّه أراد لا تؤاخذنى بما تركت و يجرى ذلك مجرى قوله تعالى:

(ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى أى ترك).(۲۹)

وقال الراغب فى مفرداته (عندما ذكر الوجوه المختلفة لتسمية الإنسان إنسانا) و قيل هو إفعلان و أصله إنسيان سمى بذلك لأنَّه عُهد إليه فنسى .

وأمّا نحن فلنا كلام مبتكر فى معنى الإنسان غير ما ذكره القوم سوف نتحدث عنه فى مظانِّه إنشاء الله تعالى.

الهوامش

---

(۱) شرح دعاء السحر ص۲۲. (۲) بحار الأنوار ج۱۱ ص۱۴۲ رواية۹ باب۲. (۳) ص ۷۵و۷۶. (۴) الحجر۳۲-۳۴. (۵) بحار الأنوار ج ۲ ص ۳۰۳ رواية ۴۱ باب ۳۴. (۶) بحار الأنوار ج ۲ ص ۲۹۱ رواية ۱۱ باب ۳۴. (۷) بحار الأنوار ج ۱۰ ص ۲۲۱ رواية ۲۲ باب ۱۳. (۸) النمل ۱۰. (۹) بحار الأنوار ج ۱۸ ص ۳۸۰ رواية ۸۶ باب ۳. (۱۰) النجم ۹. (۱۱) الكافى ج ۲ ص ۳۳ رواية ۲. (۱۲) الكافى ج ۱ ص ۳۴ رواية ۱. (۱۳) الكافى ج ۱ ص ۳۸ رواية ۳. (۱۴) الإسراء ۶۲. (۱۵) البقرة ۳۵. (۱۶) الأعراف ۲۱. (۱۷) طه ۱۲۳. (۱۸) طه ۱۲۴. (۱۹) الميزان ج۱۴ ص ۲۲۴. (۲۰) الكافى ج ۱ ص ۴۱۶ رواية ۲۳، وبحار الأنوار ج ۲۴ ص ۱۷۶ رواية ۷ باب ۵۰. (۲۱) بحار الأنوار ج ۱۱ص ۳۵ رواية ۳۱ باب ۱، ج ۱۱ ص ۱۱۲ رواية ۳۰ باب ۱، الكافى ج ۱ ص ۴۱۶ رواية ۲۲. (۲۲) بحار الأنوار ج ۲۶ ص ۲۷۹ رواية ۱۲ باب ۶. (۲۳) نفس الهامش ۸۱. (۲۴) بحار الأنوار ج ۱۱ ص ۷۹ رواية ۸ باب ۴. (۲۵) بحار الأنوار ج ۲۴ ص ۱۸۷ رواية ۱

باب ۵۲. (۲۶) بحار الأنوار ج ۲۴ ص ۸۷ رواية ۲ باب ۳۳، ج ۲۶ ص ۲۴۵ رواية ۸ باب ۵. (۲۷) الشورى ۲۳. (۲۸) البقرة ۲۷، الرعد ۲۵. (۲۹) بحار الأنوار ج ۱۳ ص ۳۱۶ رواية ۵۲ باب ۱۰.

الفصل الرابع: صفات جنَّة آدم عليه السلام

(وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى فقلنا يا آدم إن هذا عدوّ لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنَّة فتشقى).(۱)

(وقلنا يا آدم أسكن أنت و زوجُك الجنة و كلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين).(۲)

(ويا آدم أسكن أنت وزوجُك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين).(۳)

قبل أن نبدأ الحديث حول الشجرة المنهيَّة لابدَّ لنا أن نعلم أنَّ الغرض من خلق آدم هو جعل (وليس خلق) خليفة فى الأرض (لا فى مكان آخر غير الأرض) حيث قال سبحانه إنِّى جاعلٌ فى الأرض خليفة فالله سبحانه وتعالى أمره أن يسكن الجنّة وأن يأكل منها حيث شاء رغداً وقد نهاه الله عن التقرُّب إلى الشجرة وهو تكليف ومنع ولا تكليف ولا منع فى الجنَّة أصلاً فيعلم أنَّ الجنَّة لم تكن أخرويَّة بل هى جنَّة أخرى وفى الحديث أنَّها جنّة من جنّات الدنيا وكانت فى الأرض والمفروض أن يبقى فيها آدم ولكنه هبط منها بسبب تصرُّفه غير الصحيح من أكله الشجرة.

قال تعالى: (فلا يخرجنكما من الجنَّة فتشقى).

فيفهم من هذا النهى أنَّه إرشادى أى أنَّ عصيانه يؤدِّى إلى الخروج من الجنة الذى ينجرُّ إلى الشَقاء والتعب الشديد الجسمى والروحى وقد مرَّ تفصيله وأيضاً العيش فى الدنيا يستتبع الاكتساب والسعى لطلب الرزق وإعاشة الزوجة والعيال، ولو كان المراد من الشقاء هو ما يقابل السعادة الأخرويَّة لكان يشمل حواء أيضاً خصوصاً أنها كانت السبب الرئيسى للأكل من تلك الشجرة وكان الصحيح أن يعبَّر بـ(فتشقيا) فلِمَ أفرده سبحانه بآدم؟

على أنَّ الآيات التِّى تتلوا هذه الآية خير دليل على ما ادَّعيناه.

قال سبحانه: (إن لك ألاّ تجوع فيها ولا تعرى وإنك لا تظمأ فيها ولا تضحى).(۴)

فهذه هى صفات جنَّة آدم وصفات الدنيا هى عكسها.

(ثم أسكن سبحانه آدم داراً أرغد فيها عيشه وآمن فيها محلته وحذَّره إبليس وعداوته، فاغتره عدوُّه نفاسةً عليه بدار المُقام ومرافقةِ الأبرار فباع اليقين بشكه والعزيمةَ بوهنه واستبدل بالجدل وجلاً وبالاغترار ندما ثم بسط الله سبحانه له فى توبته ولقّاه كلمة رحمتِه ووعده المردَّ إلى جنتِه فأهبطه إلى دار البليةِ و تناسل الذرِّيةُ).(۵)

بنو إسرائيل والمنُّ والسلوى

وهذا النمط من الحياة نشاهده بنحو مجمل فى بنى إسرائيل أيضاً حيث أنَّ القرآن الكريم يبيِّن حالات بنى إسرائيل قبل الهبوط فى سور ثلاثة (البقرة، الأعراف، طه) هم كانوا يتنعَّمون بنفس الأسلوب الذى كان عليه آدم عليه السلام قال تعالى: (وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين).(۶)

وقال:

(وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون* وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين).(۷)

والجدير بالذكر أنَّه تعالى قد ذكر فى سورة طه قصَّة بنى إسرائيل وقال:

(ونزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم).(۸)

ثمَّ شرع فى الحديث عن آدم عليه السلام.

ولا يخفى عليك الانسجام الكامل بين التعابير التّى وردت فى شأن بنى إسرائيل والتّى وردت فى شأن آدم وزوجته حيث قال تعالى:

(فكلوا منها حيث شئتم رغدا)

وتوجد كلمة فى هذه الآيات تدلُّ على الحرية الكاملة التّى كان يتنعَّم بها بنو إسرائيل وهى" حيث شئتم "وقد ذكرت فى آيتين وهى نفسها التّى أعطيت آدم وزوجته" حيث شئتما "وهذه أيضاً قد ذكرت فى آيتين.(۹)

وفى الحديث:

(وقال الصادق عليه السلام: كان ينزل المنّ على بنى إسرائيل من بعد الفجر إلى طلوع الشمس فمن نام فى ذلك الوقت لم ينزل نصيبه فلذلك يكره النوم فى هذا الوقت إلى طلوع الشمس)

ثمَّ قال:

(وقال ابن جريح:.. ويوجد له طعم كالشهد المعجون بالسمن وكان الله تعالى يبعث لهم السحاب بالنهار فيدفع عنهم حر الشمس وكان ينزل عليهم فى الليل من السماء عمود من نور يضئ لهم مكان السراج وإذا ولد فيهم مولود يكون عليه ثوب يطول بطوله كالجلد).(۱۰)

وأنت تلاحظ فى هذه الرواية أنَّ الصفات المتواجدة فى الأرض قبل هبوط بنى إسرائيل هى نفس صفات جنَّة آدم عليه السلام.

الشجرة المنهيَّة

واختلفوا فى الشجرة المنهية فقيل كانت السنبلة رَوَوه عن ابن عباس، قيل هى الكرمة رَوَوه عن ابن مسعود والسدى وقيل هى شجرة الكافور وقال الشيخ فى التبيان رُوى عن على عليه السلام انَّه قال شجرة الكافور وقيل هى التينة وقيل شجرة العلم علم الخير والشر وقيل هى شجرة الخُلد التى كانت تأكل منها الملائكة.

ولا طريق إلى معرفة تلك الشجرة إلّا أحاديث أئمتنا عليهم السلام وهى مختلفة:

فبعضها: تقول أنَّها الحنطة كالأحاديث التالية:

۱- (تميم القرشى عن أبيه عن حمدان بن سليمان عن على بن محمَّد بن الجهم قال...قال الرضا على بن موسى عليه السلام... إن الله تبارك وتعالى قال لآدم أسكن أنت و زوجك الجنَّة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة وأشار لهما إلى شجرة الحنطة).(۱۱)

۲- (الصدوق عن أبيه عن سعد عن ابن يزيد عن ابن أبى عمير عن هشام عن الصادق عليه السلام انه قال فى قوله تعالى و بدت لهما سوآتهما كانت سوآتهما لا ترى، فصارت ترى بارزة وقال الشجرة التى نهى عنها آدم هى السنبلة).(۱۲)

۳- (محمَّد بن عمر بن على بن عبد الله البصرى عن محمَّد بن عبد الله بن احمد ابن جبلة عن عبد الله بن أحمد بن عامر الطائى عن أبيه عن الرعن آبائه عن الحسين بن على عليه السلام قال كان على بن أبى طالب عليه السلام بالكوفة فى الجامع إذ قام إليه رجل من أهل الشام..... وسأله لم صار الميراث للذكر مثل حظ الأنثيين فقال من قبل السنبلة كان عليها ثلاث حبات فبادرت إليها حواء فأكلت منها حبه وأطعمت آدم حبتَين فمن أجل ذلك ورِث الذكر مثل حظِّ الأنثيين)(۱۳)

وبعضها: تقول أنَّها شجرة الحسد:

(قال موسى بن محمَّد بن الرضا....قال أخى على بن محمَّد عليه السلام.... الشجرة التى نهى الله عنها آدم و زوجته أن يأكلا منها شجره الحسد عهد إليهما أن لا ينظرا إلى من فضل الله على خلائقه بعين الحسد فنسى و نظر بعين الحسد و لم نجد له عزما).(۱۴)

وأمّا الكافور والتينة والكرمة فلم أعثر على أحاديثها إلّا أنَّه هناك حديث يجمع بين الكل وهو:

(ابن عبدوس عن ابن قتيبة عن حمدان بن سليمان عن الهروى قال قلت للرضا عليه السلام يا ابن رسول الله اخبرنى عن الشجرة التى

أكل منها آدم وحواء ما كانت فقد اختلف الناس فيها فمنهم من يروى أنها الحنطة ومنهم من يرى أنَّها العنب ومنهم من يروى أنَّها شجره الحسد فقال كلٌّ ذلك حقٌّ قلت فما معنى هذه الوجوه على اختلافها فقال يا أبا الصلت إنَّ شجر الجنة تحمل أنواعاً فكانت شجرة الحنطة وفيها عنب وليست كشجر الدنيا وإنَّ آدم عليه السلام لما أكرمه الله تعالى ذكره بسجود ملائكته له وبإدخاله الجنَّة قال فى نفسه هل خلق الله بشراً أفضل منِّى فعلم الله عزَّ وجلَّ ما وقع فى نفسه فناداه ارفع رأسك يا آدم فانظر إلى ساق عرشى فرفع آدم رأسه فنظر إلى ساق العرش فوجد عليه مكتوبا لا اله إلا الله محمَّد رسول الله على بن أبى طالب أمير المؤمنين وزوجه فاطمة سيده نساء العالمين والحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنَّة فقال آدم عليه السلام يا رب من هؤلاء فقال عز وجل من ذريتك وهم خير منك ومن جميع خلقى ولولا هم ما خلقتك ولا خلقت الجنَّة والنار ولا السماء والأرض فإياك أن تنظر إليهم بعين الحسد فأخرجك عن جوارى فنظر إليهم بعين الحسد و تمنى منزلتهم فتسلط الشيطان عليه حتى أكل من الشجرة التى نهى عنها و تسلط على حواء لنظرها إلى فاطمة عليها السلام بعين الحسد حتى أكلت من الشجرة كما أكل أدم فأخرجهما الله عز وجل عن جنته وأهبطهما عن جواره إلى الأرض).(۱۵)

أقول: ويستفاد من هذا الحديث أنَّ جنَّة آدم لإنْ كانت من جنّات الدنيا لم تكن من التّى يطلق عليها اسم الجنَّة مجازاً كما اعتقد بذلك بعض المفسّرين بل كانت هى الجنَّة حقيقةً حيث كانت ذات وعاء أوسع من الدنيا لأنَّه قد اجتمعت جميع تلك الثمار فى شجرة واحدة من أشجارها وهذا شأن عالم الوحدة.

ولا بأس ههنا أن ننقل كلمة حول الآخرة لإمامنا قدِّس سرُّه ذكرها فى كتابه القيِّم شرح دعاء السحر تحت عنوان (ليس فى الآخرة تزاحم بين الكثرات) قال:

(سمعت من أحد المشايخ من أرباب المعرفة رضوان الله عليه يقول: أنَّ فى الجنَّة شربةً من الماء فيها جميع اللذات من المسموعات بفنونها من أنواع الموسيقى والألحان المختلفة، ومن المبصرات بأجمعها من أقسام لذات الأوجه الحسان وسائرها من الأشكال والألوان، ومن سائر الحواس على ذلك القياس حتّى الوقاعات وسائر الشهوات كلٌّ يمتاز عن الآخر. وسمعت من أحد أهل النظر رحمه الله تعالى يقول: أنَّ مقتضى تجسُّم الملكات وبروزها فى النشأة الآخرة أنَّ بعضَ الناس يُحشر على صُوَرٍ مختلفة، فيكون خنزيراً وفأرة وكلباً إلى غير ذلك فى آنٍ واحد. ومعلوم أنَّ ذلك لسعة الوعاء وقربها من عالم الوحدة والتَّجرد وتنزُّهها عن تزاحم عالم الطبيعة والهيولى انتهى كلامه أعلى الله مقامه).(۱۶)

ثمَّ إنّ فى الحديث قد ذكرت كلمة الحسد وهل المقصود منه الحسد المصطلح لدينا والذى هو من المحرمّات الذى هو يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب؟

قال العلاّمة المجلسى رحمه الله:

المراد بالحسد الغبطة التى لم تكن تنبغى له عليه السلام و يؤيده قوله عليه السلام وتمنَّى منزلتهم.(۱۷)

أقول: ولنا حول هذا النوع من الحسد كلام نبيِّنه فى محله إنشاء الله.

الوسوسة!!

الشيطان بعد أن طُرد من رحمة الله وقربه وشمله اللعن الإلهى صار عدوّاً بيِّناً للإنسان كما صرَّح بذلك القرآن الكريم فى مواضعَ ثمانية بأنَّ الشيطان للإنسان عدوّاً مبينا وبخصوص إبليس قال تعالى مخاطباً لآدم:

(يا آدم إن هذا عدوّ لك و لزوجك فلا يُخرجنكما من الجنَّة فتشقى).(۱۸)

أقول: أمّا عداوة إبليس لآدم فذلك واضح، كيف وهو الذى أبى وأستكبر ولم يُطع الله فيما أمره من السجود و لهذا فقد لعنه الله سبحانه وأبعده عن رحمته ومن الطبيعى أنَّ من يبتعد عن الخير المطلق سوف ينغمر فى الشرّ المطلق.

والظاهر أنَّ الخطاب هنا خاص لآدم ويتعلق بخصوص إبليس وذلك لمكان قوله تعالى إنَّ هذا.

ثمَّ إنَّ التصريح بزوج آدم فى الآية المباركة وتكرار حرف الجرّ أعنى اللام فى ولزوجك ربما يستهدف أمرين:

۱- الإهتمام البالغ بالمسألة وعدم التهاون بها حيث أنَّ العداوة تشمل الزوجة أيضاً ومن الطبيعى أنَّ آدم كان متعلقاً بزوجته ومستأنساً بها.

۲- التنبيه المسبق لآدم عمّا سيحدث و هو أنَّ زوجتَه هى التّى سوف تدعوه إلى الأكل من تلك الشجرة.

ولكنْ: مع ذلك استطاع أن يُغوى آدم وذلك من خلال الوسوسة إليه (فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى).(۱۹)

والوسواس هو صوت الحلى والهمس الخفى ويستعين به الشيطان دائماً لإغواء الناس حيث يوسوس فى صدورهم فلا بدَّ من الالتجاء و الاستعاذة بربِّ الناس لأجل النجاة من شرِّه كما قال تعالى:

(قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس).(۲۰)

ومن الواضح أنَّ الإنسان لا يمكنه أن يعرف ربَّه إلّا أن يعرف نفسَه مُسبقاً وبمعرفة النفس يمكنه أن ينجو من شرّ وساوس الشيطان فتأمَّل تعرف. ومن هنا نعرف السرّ فى أهميَّة ذكر الله عندما يبتلى الإنسان بالشيطان لأنَّ الشيطان خنّاس فعند ذكر الله يفرّ وعند الغفلة يرجع ومن هنا سمِّىَ خنّاساً. (والمقصود الذى يخنس أى ينقبض إذا ذكر الله تعالى) وقوله تعالى:

(فلا أقسم بالخنس)

أى الكواكب التى تخنس بالنهار، والإنسان يمكنه أن يتخلص من الشيطان بمجرد أن يذكر الله:

(إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون).(۲۱)

فعلى الرغم من أنَّ الله سبحانه قد حذَّر آدم من التقرُّب إلى تلك الشجرة إلّا أن الشيطان قد استغل أسلوبه الخطير الذى هو التسويل والتزيين (قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى).(۲۲)

لأنَّ آدم عليه السلام كان يرغب فى الخلود و البقاء فى الجنَّة وشجرةُ الخلد تعنى أنَّه سوف يُرسِّخ من خلالها جذوره فى الجنَّة ومن ثمَّ سوف يصل إلى مُلكٍ لا يزول أصلاً.

ولكن كان هدف الشيطان أن يُزيل آدم وزوجته من تلك الحالة النورانيَّة التّى شرحناها سابقاً حيث لم يكن يحتاج إلى اللباس ولم يكن يجوع حيث أنَّه لم يكن يطلق عليه الجسم بالمعنى الفعلى حتَّى يحتاج إلى الغذاء الجسمانى نعم كان يتنعَّم بالأغذية الروحانية والمعنوية كما ورد فى شأن رسول الله صلى الله عليه و آله وسلَّم:

(إن الملائكة طعامهم التسبيح وشرابهم التقديس)

ومن هنا نشاهد أنَّ الوصال فى الصوم كان مباحا للنبى صلى الله عليه وآله وحرام على أمته ومعناه أنه يطوى الليل بلا أكل وشرب مع صيام النهار لا أن يكون صائما لأن الصوم فى الليل لا ينعقد بل إذا دخل الليل صار الصائم مفطرا إجماعا فلما نهى النبى صلى الله عليه وآله وسلَّم أمته عن الوصال قيل له انك تواصل فقال:

(إنى لست كأحدكم إنِّى أظل عند ربى يطعمنى و يسقينى)(۲۳) (وقد قال صلى الله عليه وآله أن عينى تنامان ولا ينام قلبى)(۲۴) (العطار عن أبيه عن الاشعرى عن الجامورانى عن منصور بن العباس عن عمرو بن سعيد عن الحسن بن صدقه قال قال أبو الحسن الأول عليه السلام قيلوا فان الله يُطعم الصائم و يسقيه فى منامه).(۲۵)

وإذا نجح فى هذه المرحلة فسوف يمكنه أن يغويهما بسهولة فى المراحل الأخرى:

(فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وُرِى عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين فدلَّهما بغرور).(۲۶)

والظاهر أنَّ آدم كان معجباً بالملائكة حيث استغلَّ الشيطان هذا الإعجاب فقال إلا أن تكونا ملكين ولو كان آدم عارفاً نفسَه حقَّ

المعرفة لكان من اللازم أن لا ينخدع بمثل هذا الكلام ومن المفروض أن يَردَّ على الشيطان بأنَّه أفضل من الملك! ولكنَّه لم يكن يعرف السرّ الكامن فيه والهدف الذى خلق لأجله حقَّ المعرفة كما شرحنا سابقاً ومن هنا نراه قد اقتنع بكلام الشيطان خصوصاً عندما استعان بالقسم الكاذب وأنَّه بالفعل من الناصحين!

فماذا حدث؟ يقول سبحانه:

(فأكلا منها فبدَت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورقِ الجنة وعصى آدم ربَّه فغوى).(۲۷)

الفصل الخامس: الهبوط

[تمهيد]

فماذا حصل بعد الأكل؟

الذى حصل ليس هو إلاّ الهبوط من الحالة الروحانيَّة النورانيَّة إلى الحالة الجسمانية الظلمانيَّة.

وقد ذكر الله ذلك من خلال لازمه حيث قال: (فبدت لهما سوآتهما)

وهذا إن دلَّ على شيءٍ فإنَّما يدلُّ على تغيير حالتهما ليس إلاّ والشاهد على ذلك قوله تعالى: (وطفقا يخصفان عليهما من ورقِ الجنة) فلا يَزالا يعيشان فى الجنَّة وهما خارجان منها وذلك لأنَّهم كانا يحتاجان لستر عورتهما إلى ورقها وهذا معنى الهبوط الذى يلازمه الشقاء والتعب وقد شرحناه سابقاً وسنُبيِّنه فى مطاو كلامنا والدليل على ذلك قوله تعالى: (فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه و قلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو و لكم فى الأرض مستقر و متاع إلى حين).(۲۸)

تأمَّل فى قوله تعالى: (فأخرجهُما ممّا كانا فيه)

فكلمة ما تُشير إلى الحالة التّى كانا فيها وتبيِّن الصفة التّى كانا مُتصفين بها لأنَّ الضمير فى عنها يرجع إلى الجنَّة فهما قد أُزِّلا عن الجنَّة وجرّاء الإزلال و الانزلاق عن الجنَّة حصلت حالة أخرى وهى أنَّهما أخرجا ممّا كانا فيه أى من تلك النورانية التى كانا فيها (هذا ما يستفاد من الفاء فى قوله تعالى (فأخرجهما).

[هبوط آدم فى القرآن الكريم]

[توضيح]

[و قد ذكر القرآن الكريم هبوط آدم فى مواضع ثلاثة:]

الأوَّل: بتثنية الفعل:

(قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى).(۲۹)

الثانى: بجمع الفعل:

ألف: [فأزلهما الشيطان...]

(فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين).(۳۰)

ب: [قلنا اهبطوا]

(قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون).(۳۱)

ج: (قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين).(۳۲)

ونفس الحالة ولكن بمستوى آخر قد حدثت فيما بعد لبنى إسرائيل حيث لن يصبروا على طعام واحد:

(وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد)

وكانوا يطلبون من موسى أن يدعوَ الله أن يُخرج لهم الأطعمة المتنوِّعة

(فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها)

وهذه الأطعمة المستخرجة من الأرض هى أطعمة الدنيا ومن هذا المنطلق صارت هى الأدنى

(قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير)

ولابدَّ من الهبوط عن تلك الحالة الخاصَّة المعنويَّة لمثل هذا الإنسان الحريص على الدنيا:

(اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم)

وبطبيعة الحال لم يكن موسى عليه السلام يرغبُ لبنى إسرائيل هذا الهبوط الذى يؤدِّى إلى الذلة:

(وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله).(۳۳)

نتيجة الهبوط

التورُّط فى الدنيا ومزاحماتها وكثراتها ومن ثمَّ السعى لتصاحبها بنحو تامّ كلٌّ يريده وهذا ما أوجد العداوة والبغضاء بين الناس:

(وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو)

وأوَّل حادث حدث هو قتل قابيل هابيل حيث يقول تعالى:

(فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين).(۳۴)

(من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحى الناس جميعا ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون).(۳۵)

ثمَّ إنَّ إرسال الرسل وإنزال الكتب لم يكن ضمن المُخطَّط الأوَّل، ولم يكن بنى آدم يفتقر إلى الهداية بهذه الصورة لأنَّه كان يعيش عالم الأنوار ولكن حيث أنّ الإنسان قد وقع فى معرض الهلاك بسبب مكائد الشيطان وحِيَلِه كان من اللازم عليه سبحانه أن يُرسل الرسل ويُنزل معهم الكتب حيناً بعد حين لئلّا يكون للناس على الله حجّة.

ومن الطبيعى أنّهما قد ارتكبا خلافاً لأوامر الله ولهذا يقول سبحانه

(وناداهما ربُّهما ألم أنهَكُما عن تلكما الشجرةِ وأقل لكما إن الشيطانَ لكما عدوٌّ مبينٌّ قالا رَبَّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننَّ من الخاسرين).(۳۶)

قبول توبة آدم لا ينافى هبوطه

قال تعالى:

(ثم اجتباه ربُّه فتاب عليه وهدى قال اهبطا منها جميعاً بعضُكم لبعض عدوٌّ فإمّا يأتينكم منى هدىً فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرضَ عن ذِكرى فإن له معيشةً ضنكا ونحشُره يوم القيامة أعمى قال ربِّ لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك

آياتنا فنسِيتها وكذلك اليومَ تُنسى).(۳۷)

الآيات تدلُّ على أنَّ الله سبحانه اجتبى آدم فتاب عليه وهذا لا ينافى بقائه خارج الجنَّة لأنَّ قبول التوبة شىء والرجوع إلى الجنَّة شىء آخر ولتوضيح ذلك نذكر مثالاً فنقول:

لو أنَّ رجلاً ـ كان يسكن مع أبيه فى البيت من دون أن يدفع مبلغاً مقابل سكناه بل يتمتَّع بجميع ما فى بيت أبيه من غير مقابل ثمَّ إنَّه وبسوء تصرُّفه نازع أباه وتشاجر معه وجرّاء ذلك طرده أبوه من البيت وحرمه من جميع تلك التسهيلات التى كان يتنعَّم بها فاضطرَّ إلى العيش فى مكان ضيِّق وذلك مقابل إيجار وتحمُّل المشاق والصعوبات فابتلى بمصيبتين:

۱-الحرمان من أبيه كمصدر للعاطفة والحنان (وهو أمرٌ معنوى بحت).

۲-الخسارة المالية التى يتحمَّلها اثر إخراجه من البيت (وهو أمر مادِّى).

فلو فرض أنَّه اعتذر من أبيه، وطلب منه قبولَ عذره وأصرَّ على ذلك وبالفعل اكتسب رضاه، فهذا لا يعنى أنَّه سوف يرجعه إلى البيت مرَّةً ثانية حيث لا تلازم بينهما بل الخير والمصلحة فى بقائه خارج البيت لعلَّه يَعتبر فيسعى لإرجاع نفسه إلى ما كان فيه مرَّةً أخرى.

فإذاً قبول عذره قد حلَّ مشكلةً واحدةً من مشاكله أعنى المشكلة المعنوية وهى الأهمّ ولكن تبقى المشكلة الثانية ولكن المشكلة الأولى باقية على ما كانت، وحلُّها الحاسم يتطلَّب السعى والجدّ فى كسب الرضا القلبى للأب مضافاً إلى جبر ما حدث كى لا يبقى شىء من الخجل أصلاً.

ولو فُرض أنَّ الأب أرجعه إلى بيته مباشرةً فلا جدوى فى ذلك حيث لا رغد فى هذا العيش بعد ما حدث من التقصير.

ومن هنا صار الأصلح (بعد الخروج) البقاء خارج البيت والسعى للوصول إليه مرَّةً ثانية ولكن بالسعى المتواصل.

وعلى ضوء المثال الذى بيَّناه نقول:

بعد أن أكل آدم من الشجرة حدثت له مشكلتان:

۱- ابتعد عن رحمة ربِّه.

۲- ابتلى بالهبوط وعاش فى عالم الدنيا الذى ليس هو إلّا متاع.

فبعد أن رجع إلى ربِّه وتاب وقبلت توبته اقترب إلى ربِّه مرَّةً ثانية وعاش فى ظل رحمته ولكن هذا لا يعنى أنَّه رجع إلى ما كان فيه بل لم يكن الرجوع حينئذٍ يُجديه بعد اللتيا والتى حيث الخجل من ربِّه العطوف فى حقِّه فكان الحلُّ الوحيد للرجوع إلى جنته هو أداء تكاليفه (والخير فيما حدث) لا(الخير فى حدوثه). فمادام حدث ما حدث فلا بدَّ من حلٍّ!! فيا ترى ما هو الحل؟ هذا ما سنبيِّنه فيما بعد.

ولأنَّ إبليس نجح فى إغوائه لآدم عليه السلام واستطاع أن يخرجه من الجنَّة ويورِّطه فى عالم الكثرة والاختلاف صار الدنيا متاعاً للإنسان ووسيلةً لرُقيِّه أو انحطاطه فهو:

متاع الغرور

القرآن الكريم عندما يريد أن يميِّز بين الآخرة والدنيا يُطلق كلمة المتاع على الحياة الدنيوية:

(زين للناس حبّ الشهوات من النساء و البنين و القناطير المقنطرة من الذهب و الفضة و الخيل المسومة و الأنعام و الحرث ذلك متاع الحياة الدنيا و الله عنده حسن المآب).(۳۸)

فتلك الأمور كلُّها هى متاع الحياة الدنيا وقال تعالى:

(وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع).(۳۹)

ومن ناحية أخرى يوصف الدنيا بأنَّها متاع الغرور:

(وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور).(۴۰)

قال صاحب المفردات" الراغب الإصفهانى "فى معنى كلمة الغرور:

(غرر: يقال غررت فلانا "أصبت غرته ونلت منه ما أريده والغرة غفلة فى اليقظة والغرار غفلة مع غفوة.. فالغرور كل ما يغر الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان وقد فسر بالشيطان إذ هو أخبث الغارين وبالدنيا لما قيل الدنيا تغر وتضر وتمر).

وعندما يبيِّن القرآن الكريم كيفيَّة إغواء الشيطان يقول:

(واستفزز من استطعت منهم بصوتك و اجلب عليهم بخيلك و رجلك و شاركهم فى الأموال و الأولاد و عدهم و ما يعدهم الشيطان الا غرورا).(۴۱)

(يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا).(۴۲)

وبالنسبة إلى إغوائه آدم وحواء قال:

(فدلاهما بغرور).(۴۳)

ومن هنا نشاهد أنَّه تعالى يخاطب رسوله:

(لا يغرنَّك تقلب الذين كفروا فى البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد)(۴۴) (قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين)(۴۵) (لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا).(۴۶)

الهوامش

---

(۱) طه ۱۱۶-۱۱۷. (۲) البقرة ۳۵. (۳) الأعراف ۱۹. (۴) طه ۱۱۸-۱۱۹. (۵) بحار الأنوار ج۱۱ ص۱۲۲ رواية ۵۶ باب۱. (۶) البقرة ۵۷، ۵۸. (۷) الأعراف/۱۶۱، ۱۶۰. (۸) طه ۸۰. (۹) وهما (وقلنا يا آدم أسكن أنت و زوجُك الجنة و كلا منها رغداً حيث شئتما) (ويا آدم أسكن أنت و زوجُك الجنة فكلا من حيث شئتما و لا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين). (۱۰) بحار الأنوار ج ۱۳ ص ۱۶۷ باب ۶. (۱۱) بحار الأنوار ج ۲۴ ص ۴۰۱ رواية ۱۳۰ باب ۶۷، ج ۳۶ ص ۱۲۳ رواية ۶۶ باب ۳۹. (۱۲) بحار الأنوار ج ۱۱ ص ۱۴۵ رواية ۱۴ باب ۲. (۱۳) بحار الأنوار ج ۱۱ ص ۱۶۷ رواية ۱۳ باب ۲. (۱۴) بحار الأنوار ج ۱۰ ص ۳۸۶ رواية ۱ باب ۲۳. (۱۵) بحار الأنوار ج۱۱ ص۱۶۴ رواية۹ باب۳. (۱۶) شرح دعاء السحر للإمام الخمينى ص ۳۹، ۴۰. (۱۷) بحار الأنوار ج ۱۱ ص ۱۶۵ رواية ۹ باب ۳. (۱۸) طه ۱۱۷. (۱۹) طه۱۲۰. (۲۰) الناس ۱-۶. (۲۱) الأعراف ۱۹۹. (۲۲) طه۱۲۰. (۲۳) بحار الأنوار ج ۱۶ ص ۳۸۹ رواية ۹۶ باب ۱۱. (۲۴) بحار الأنوار ج ۶۷ ص ۲۵۳ رواية ۸۸ باب ۱۲. (۲۵) بحار الأنوار ج ۹۶ ص ۲۹۰ رواية ۸ باب ۳۶. (۲۶) الأعراف ۲۰-۲۱. (۲۷) طه ۱۲۱. (۲۸) البقرة ۳۶. (۲۹) طه ۱۲۳. (۳۰) البقرة ۳۶. (۳۱) البقرة ۳۸. (۳۲) الأعراف ۲۴. (۳۳) البقرة ۵۷-۶۱. (۳۴) المائدة ۳۰-۳۲. (۳۵) المائدة ۳۲. (۳۶) الأعراف ۲۲. (۳۷) طه ۱۲۲-۱۲۶. (۳۸) آل عمران ۱۴. (۳۹) الرعد ۲۶. (۴۰) آل عمران ۱۸۵. (۴۱) الإسراء ۶۴. (۴۲) النساء ۱۲۰. (۴۳) الأعراف ۲۲. (۴۴) آل عمران ۱۹۷. (۴۵) الأعراف۱۶، ۱۷. (۴۶) النساء ۱۱۸.

النفس الأمّارة

وليُعلم أن الشيطان وإن كان هو العدوُّ المبين ولكن النفس الأمارة هى أعدى عدوّ الإنسان كما ورد فى الرواية:

(أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك).(۱)

وذلك لأنَّ وساوس الشيطان لها حدٌّ خاصٌ دون الأميال النفسانية فهى خطيرة جداً بل هى مُستمسك قويٌ للشيطان بل الشيطان هو الذى يُغوى النفس ومن خلالها يتسلط على الإنسان.. فالشيطان إذاً لا يُجبِر الإنسان على الشرّ ولا يُحمِّل عليه ذلك بل يتصرف فى عقل الإنسان بأساليب مختلفة أهمُّها هذه الأساليب الخمسة:

۱- لأغوينهم.

۲- لأمنينهم.

۳- لأزينن لهم فى الأرض.

۴- لآمرنهم.

۵- لأضلَّنهم.

متاع إلى حين!!

ثمَّ إنَّ القرآن الكريم حينما يتحدَّث عن الهبوط يقول:

(وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين).(۲)

فالاستقرار فى الأرض كمتاع ليس هو طوال الدهر بل هو إلى حين منه والحين هو مقطع من الدهر والدهر يتعلَّق بالعالم الذى قبل قيام القيامَة الذى يشتمل على الزمان والمكان وكلُّ ذلك من عوارض الجسم فلولا الجسم وحدوده وأبعاده لما كان يتحقق مفهوم المكان ولولا المكان لما كان هناك زمانٌ فى البين ولهذا نشاهد أنَّ الله سبحانه وتعالى يقول:

(هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا).(۳)

وقد شرحنا ذلك بالتفصيل فى تفسيرنا لسورة الإنسان فراجع وأيضاً ينقل سبحانه عقيدةَ الدهريين بقولهم:

(وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون).(۴)

وإن كانت هذه العقيدة باطلة من بنيانها.

ومن هنا نشاهد أنَّه تعالى عندما يتحدَّث عن الحاجات التّى نفتقر إليها فى حياتنا الدنيويَّة يحدِّد صلاحيتها إلى حين

(وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولاهم ينقذون إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين).(۵)

(والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها و أوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين).(۶)

وقد وضَّحنا السر فى ذلك(عند شرح معنى الهبوط) وسوف يتَّضح لك فى ما بعد إنشاء الله.

فإذاً إلى حين لا يعنى إلى يوم القيامة بل يعنى إلى يوم ما قبل القيامة لأنَّه عند قيام القيامة كلُّ شىء يتغيَّر فالشمس تتكور والكواكب تنتثر والبحار تتفجَّر.

فهاهنا سؤال يطرح نفسَه وهو متى يتحقق ذلك الحين؟ وهل هناك سبيل للوصول إلى ذلك؟

أقول: نعم هناك سبيل واضح للوصول إلى الجواب وهو الرجوع إلى أمر إبليس بعد إغوائه لآدم وزوجته وذلك لأنَّ حقيقة الدنيا متقوِّمة بإبليس وجنوده فلولاه لما كانت هذه البسيطة التّى نعيش عليها هى الدنيا بل كانت الجنَّة بعينها كما كانت قبل عصيان آدم عليه السلام وقد شرحنا هذا الأمر بالتفصيل سابقاً فراجع.

وأمّا إبليس فيطلب من الله أن يبقيه إلى يوم يوعدون:

(قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون)(۷) (قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتنى إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا).(۸)

فكان إبليس عليه لعائن الله يريد البقاء إلى يوم القيامة وهل قبل الله هذا الطلب؟ كلا!! حيث أنَّه تعالى أجابه:

(قال فإنك من المنظرين)

ولكن إلى متى؟؟

(إلى يوم الوقت المعلوم)

فهناك يومٌ موقوت محدَّد لا يُنظر الشيطان بعده ولم تقم القيامة حينئذٍ بعدُ فمادام لم يتواجد الشيطان فلا إغواء يعترى الإنسان نعم هذا لا يعنى سلب الاختيار عن الإنسان تماماً بل هناك بعض من الناس الذين لا يزالون يعيشون الكفر والعصيان قطعاً ولكنَّهم غير ممكَّنين فى الأرض،فهناك أرضٌ وسماءٌ ولكنَّه لا يُطلَق عليها الدنيا وهو ذلك اليوم الذى وعد الله آدم ليرجعه إلى جنَّته كما فى خطبة أمير المؤمنين الآتية

وفى هذا اليوم سوف ينتقم الله من جميع الظالمين بالحجَّة عليه السلام وقد ورد فى تفسير قوله تعالى:

(أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين).(۹)

وفى الحديث:

(كنز العمّال روى الحسن بن أبى الحسن الديلمى بإسناده إلى محمد بن على عن أبى عبد الله عليه السلام فى قوله عز و جل ا فمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه قال الموعود على بن أبى طالب وعده الله أن ينتقم له من أعدائه فى الدنيا و وعده الجنة له و لأوليائه فى الآخرة).(۱۰)

فهناك وعدٌ إلهى سوف يلاقيه الإنسان المؤمن وهو ليس من الحياة الدنيا ولا يتعلَّق بالقيامة فمتى هو إذاً؟

سوف يتضح لك ذلك الزمان الذى يُحقق الله فيه وعده فانتظر.

الفصل السادس: علل الأحكام و التكاليف الإلهيَّة

[تمهيد]

إنَّ بنى آدم وبعد خروجهم من ذلك النعيم المعنوى افتقروا إلى تكاليف ذات أبعاد مختلفة وجوانب شتَّى لكى تعالج جميع الثغرات التى حصلت لهم جراء تلك المشكلة أعنى الهبوط فالله سبحانه بحكمته ولطفه لم يترك آدم وبنوه بحالهم بعد الهبوط بل مادام قد تاب آدم ورجع فلا بد من التفضل عليه وعلى بنيه بالتكاليف المتنوعة من الصلاة والصوم والحج والجهاد ووو..كى ينجوا أنفسهم من الهبوط فى دار الدنيا ويرجعوا إلى دار كرامته، فإذاً الحل الوحيد لمثل هذا الإنسان الهابط هو العمل بالتكاليف الإلهية وإن كان الإنسان الهادى لا يفتقر إلى التكاليف للوصول إلى جوار الرب حيث أنه يعيش الجنة ولكن حيث إن التكاليف هى قوانين شاملة ومستوعبة فلا يجوز فيها الاستثناء أصلا فلا بد للكل أن يعملوا بها الهابطون والهداة من غير فرق بينهم.

والجدير بالذكر إن هناك علاقة بين الأكل من الشجرة المنهيَّة التى أدَّت إلى الهبوط وبين التكاليف الإلهيَّة، وهذه العلاقة قد وصلت إلى مستوى العليَّة والمعلوليَّة، وفى علم المعقول هناك أصل ثابت يقول: أنَّ العلَّة والمعلول بينهما سنخيَّة وانسجام كامل بحيث أنَّ المعلول هو الذى يعكس العلَّة تماماً وهو الذى يُظهره عيناً ومن هنا يقال للمعلول المَظهر.

علل الشرائع و الأحكام

وعلى هذا الأساس نتمكَّن من معرفة الفلسفة العملية للأحكام والتكاليف المتنوِّعة فكُلُّ الأحكام والتكاليف ترجع إلى ما حدث فى تلك الجنَّة (أعنى جنَّة آدم)، تلك الحوادث التّى أدَّت إلى خروج آدم منها ومن ثمَّ ابتلائه بعالم الكثرة كما مرَّ، كما أنَّ العمل بتلك التكاليف هى التّى تضمن رجوع الإنسان إلى جوار ربِّه.

وقد اعتمد الإمام قدّس سرّه على هذا الأمر اعتماداً أساسياً وتحدَّث عنه فى كتبه المختلفة قال إمامنا قدِّس سرُّه فى كتاب الآداب المعنوية للصلاة بعد أن نقل الحديث التالى:

(عن معاوية بن عمار عن الحسن بن عبد الله عن أبيه عن جده الحسن بن على بن أبى طالب عليه السلام قال جاء نفر من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال يا محمد أنت الذى تزعم انك رسول الله وإنك الذى يوحى إليك كما أوحى إلى موسى بن

عمران فسكت النبى صلى الله عليه وآله وسلم ساعة ثم قال صدقت يا محمد فأخبرنى لأى شئ توضأ هذه الجوارح الأربع وهى أنظف المواضع فى الجسد قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم لما أن وسوس الشيطان إلى آدم ودنا آدم من الشجرة ونظر إليها ذهب ماء وجهه ثم قام وهو أول قدم مشت إلى الخطيئة ثم تناول بيده ثم مسها فأكل منها فطار الحلى والحلل عن جسده ثم وضع يده على أم رأسه وبكى فلما تاب الله عز وجل عليه فرض الله عز وجل عليه وعلى ذريته الوضوء على هذه الجوارح الأربع وأمره أن يغسل الوجه لما نظر إلى الشجرة وأمره بغسل الساعدين إلى المرفقين لما تناول منها وأمره بمسح الرأس لما وضع يده على رأسه وأمره بمسح القدمين لما مشى إلى الخطيئة).(۱۱)

(عن معاوية بن عمار عن الحسن بن عبد الله عن آبائه عن جده الحسن بن على بن أبى طالب عليه السلام قال جاء نفر من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسأله أعلمهم عن مسائل فكان فيما سأله أن قال لأى شئ فرض الله عز وجل الصوم على أمتك بالنهار ثلاثين يوما وفرض على الأمم السالفة اكثر من ذلك فقال النبى صلى الله عليه وآله أن آدم لما أكل من الشجرة بقى فى بطنه ثلاثين يوما ففرض الله على ذريته ثلاثين يوما الجوع والعطش والذى يأكلونه تفضل من الله عز وجل عليهم.. قال اليهودى صدقت يا محمد).(۱۲)

قال الإمام قدس سرُّه:

فمن هذه الأحاديث لأهل الإشارات و أصحاب القلوب استفادات منها إن خطيئة آدم عليه السلام مع أنها ما كانت من قبيل خطايا غيره بل لعلها كانت خطيئة طبيعية أو أنها كانت خطيئة التوجه إلى الكثرة التى هى شجرة الطبيعة أو كانت خطيئة التوجه إلى الكثرة الأسمائية، بعد جاذبة الفناء الذاتى ولكنها ما كانت متوقعة من مثل آدم عليه السلام الذى كان صفىّ الله والمخصوص بالقرب والفناء الذاتى ولهذا أعلن الذات المقدسة وأذاع بمقتضى الغيرة الحبِّية عصيانَه وغوايته فى جميع العوالم وعلى لسان الأنبياء عليهم السلام، وقال تعالى: وعصى آدم ربه فغوى.

ومع ذلك، لابد من التطهير والتنبيه بهذه المثابة له ولذريته التى كانت مستكنة فى صلبه ومشتركة فى خطيئته بل اشتركوا فى الخطيئة بعد الخروج من صلبه أيضا فكما أن لخطيئة آدم وأبنائه مراتب ومظاهر فأول مرتبتها التوجه إلى الكثرات الاسمائية و آخر مظهرها الأكل من الشجرة المنهية التى صورتها الملكوتية شجرة فيها أنواع الثمار والفواكه وصورتها الملكية هى الطبيعة و شؤونها، و إن حب الدنيا و النفس اللذين هما موجودين باستمرار فى الذرية لمن شؤون هذا الميل إلى الشجرة والأكل منها كذلك لتطهيرهم وتنزيههم و طهارتهم و صلاتهم و صيامهم للخروج من خطيئة الأب الذى كان هو الأصل أيضا مراتب كثيرة مطابقة لمراتب الخطيئة. وقد علم من هذا البيان إن جميع أنواع المعاصى القالبية لابن آدم هى من شؤون أكل الشجرة، و تطهيرها على نحو خاص: وإن جميع أنواع المعاصى القلبية لهم أيضا من شؤون تلك الشجرة و تطهيرها بطور آخر.(۱۳)

وفى موضعٍ آخر نقل الحديث التالى:

(قال اليهودى صدقت يا محمد فأخبرنى عن الخامسة لأى شئ أمر الله بالاغتسال من الجنابة و لم يأمر من البول و الغائط قال رسول الله صلى الله عليه وآله إن آدم لما أكل من الشجرة دب ذلك فى عروقه و شعره و بشره فإذا جامع الرجل أهله خرج الماء من كل عرق وشعره فأوجب الله على ذريته الاغتسال من الجنابة إلى يوم القيامة).

ثمّ قال:

وظاهر هذه الأحاديث و إن كان عند أهل الظاهر هو أن النطفة لما كانت تخرج من جميع البدن فوجب غسل جميعه. و هذا مطابق لرأى جمع من الأطباء و الحكماء الطبيعيين ولكن تعليله عليه السلام بأكل الشجرة كما فى الحديث الأول ونسبة الجنابة إلى النفس كما فى الحديث الثانى يفتح طريقا إلى المعارف لأهل المعرفة والإشارة لان قضية الشجرة وأكل آدم منها من أسرار علوم القرآن وأهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام، وكثير من المعارف مرموز فيها، ولذا جعلوا عليهم السلام فى الأحاديث الشريفة قضية آدم،

و الأكل من الشجرة علة لتشريع كثير من العبادات ومن جملتها باب الوضوء والصلاة والغسل وصوم شهر رمضان وكونه ثلاثين يوما وكثير من مناسك الحج، وفى نيتى منذ سنين أن أفرد رسالة فى هذا الباب ولكن الانشغالات الأخر منعتنى عن ذلك، وأسأل الله تعالى التوفيق والسعادة لذلك.

أقول: إنَّ الشجرة هى الأساس فى التكاليف إلاّ أنَّ هناك كثير منها يرتبط بما حدث بعد الأكل أو حين الأكل فهناك أحاديث كثيرة تبيِّن أسرار العبادات تُربط هذه العبادات بتلك الحوادث فقد وردت فى أسرار الحج أيضا أحاديث كثيرة تدلُّ على ذلك نذكر واحدة منها:

(عن عبد الله ابن سنان قال بينا نحن فى الطواف إذ مر رجل من آل عمر فأخذ بيده رجل فاستلم الحجر فانتهره واغلظ له وقال له بطل حجك إن الذى تستلمه حجر لا يضر ولا ينفع فقلت لأبى عبد الله عليه السلام جعلت فداك أما سمعت قول العمرى لهذا الذى استلم الحجر فأصابه ما أصابه فقال وما الذى قال قلت له قال يا عبد الله بطل حجك إنما هو حجر لا يضر ولا ينفع فقال أبو عبد الله عليه السلام كذب ثم كذب ثم كذب أن للحجر لسانا ذلقا يوم القيامة يشهد لمن وافاه بالموافاة ثم قال إن الله تبارك وتعالى لما خلق السماوات والأرض خلق بحرين بحرا عذبا وبحرا أجاجا فخلق تربه آدم من البحر العذب وشن عليها من البحر الأجاج ثم جبل آدم فعرك عرك الأديم فتركه ما شاء الله فلما أراد أن ينفخ فيه الروح أقامه شبحا فقبض قبضه من كتفه الأيمن فخرجوا كالذر فقال هؤلاء إلى الجنَّة وقبض قبضه من كتفه الأيسر وقال هؤلاء إلى النار فأنطق الله عز وجل أصحاب اليمين وأصحاب اليسار فقال أهل اليسار يا رب لما خلقت لنا النار ولم تبين لنا ولم تبعث إلينا رسولا فقال الله عز وجل لهم ذلك لعلمى بما أنتم صائرون إليه وإنى سأبتليكم فأمر الله عز وجل النار فأسعرت ثم قال لهم تقحموا جميعا فى النار فإنى اجعلها عليكم بردا وسلاما فقالوا يا رب إنما سألناك لأى شئ جعلتها لنا هربا منها ولو أمرت أصحاب اليمين ما دخلوا فأمر الله عز و جل النار فأسعرت ثم قال لأصحاب اليمين تقحموا جميعا فى النار فتقحموا جميعا فكانت عليهم بردا وسلاما فقال لهم ألست بربكم قال أصحاب اليمين بلى طوعاً وقال أصحاب الشمال بلى كرهاً فأخذ منهم جميعا ميثاقهم وأشهدهم على أنفسهم قال وكان الحجر فى الجنَّة فأخرجه الله عز وجل فالتقم الميثاق من الخلق كلهم فذلك قوله عز وجل وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه ترجعون فلما أسكن الله عز وجل آدم الجنَّة وعصى أهبط الله عز وجل الحجر وجعله فى ركن بيته وأهبط آدم عليه السلام على الصفا فمكث ما شاء الله ثم رآه فى البيت فعرفه وعرف ميثاقه وذكره فجاء إليه مسرعا فأكب عليه وبكى عليه أربعين صباحا تائبا من خطيئة ونادما على نقضه ميثاقه قال فمن أجل ذلك أمرتم أن تقولوا إذا استلمتم الحجر أمانتى أديتها وميثاقى تعاهدته لتشهد لى بالموافاة يوم القيامة..).(۱۴)

وقد ورد فى خصوص فلسفة الطواف حول البيت حديثٌ يُربط هذا التكليف بموضوع خلق آدم إليك نصُّه:

(فى علل ابن سنان عن الرضا عليه السلام عله الطواف بالبيت أن الله تبارك وتعالى قال للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أ تجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء فردوا على الله تبارك وتعالى هذا الجواب فعلموا أنهم أذنبوا فندموا فلاذوا بالعرش واستغفروا فأحب الله عز وجل أن يتعبد بمثل ذلك العباد فوضع فى السماء الرابعة بيتا بحذاء العرش فسمى الضراح ثم وضع فى السماء الدنيا بيتا يسمى المعمور بحذاء الضراح ثم وضع البيت بحذاء البيت المعمور ثم أمر آدم عليه السلام فطاف به فتاب الله عليه وجرى ذلك فى ولده إلى يوم القيامة).(۱۵)

واللطيف ما ورد فى سهم الميراث وأنَّ للذكر مثل حظ الأنثيين:

(عن الرضا عن آبائه عن الحسين بن على عليه السلام...وسأله لم صار الميراث للذكر مثل حظ الأنثيين فقال من قبل السنبلة كان عليها ثلاث حبات فبادرت إليها حواء فأكلت منها حبه و أطعمت آدم حبتين فمن اجل ذلك ورث الذكر مثل حظ الانثيين).(۱۶)

(على بن محمد عن صالح بن أبى حماد عن الحسين بن يزيد عن على بن أبى حمزه عن إبراهيم عن أبى عبد الله عليه السلام قال إن الله عز وجل لما أهبط آدم عليه السلام أمره بالحرث والزرع وطرح إليه غرسا من غروس الجنَّة فأعطاه النخل والعنب والزيتون والرمان

فغرسها ليكون لعقبه وذريته فأكل هو من ثمارها فقال له إبليس لعنه الله يا آدم ما هذا الغرس الذى لم أكن أعرفه فى الأرض وقد كنت فيها قبلك ائذن لى آكل منها شيئا فأبى آدم عليه السلام أن يدعه فجاء إبليس عند آخر عمر آدم عليه السلام وقال لحواء انه قد أجهدنى الجوع والعطش فقالت له حواء فما الذى تريد قال أريد أن تذيقينى من هذه الثمار فقالت حواء إن آدم عليه السلام عهد إلى أن لا أطعمك شيئا من هذا الغرس لأنَّه من الجنَّة ولا ينبغى لك أن تأكل منه شيئا فقال لها فاعصرى فى كفى شيئا منه فأبت عليه فقال ذرينى أمصه ولا آكله فأخذت عنقودا من عنب فأعطته فمصه ولم يأكل منه لما كانت حواء قد أكدت عليه فلما ذهب يعض عليه جذبته حواء من فيه فأوحى الله تبارك وتعالى إلى آدم عليه السلام أن العنب قد مصه عدوى وعدوك إبليس وقد حرمت عليك من عصيره الخمر ما خالطه نفس إبليس فحرمت الخمر لأن عدو الله إبليس مكر بحواء حتى مص العنب ولو أكلها لحرمت الكرمة من أولها إلى آخرها وجميع ثمرها وما يخرج منها ثم إنه قال لحواء فلو أمصصتنى شيئا من هذا التمر كما أمصصتنى من العنب فأعطته تمره فمصها وكانت العنب والتمرة أشد رائحة وأزكى من المسك الأذفر وأحلى من العسل فلما مصهما عدو الله إبليس لعنه الله ذهبت رائحتهما وانتقصت حلاوتهما قال أبو عبد الله عليه السلام ثم إن إبليس لعنه الله ذهب بعد وفاه آدم عليه السلام فبال فى أصل الكرمة والنخلة فجرى الماء على عروقهما من بول عدو الله فمن ثم يختمر العنب والتمر فحرم الله عز وجل على ذريه آدم عليه السلام كل مسكر لأن الماء جرى ببول عدو الله فى النخلة والعنب وصار كل مختمر خمرا لأن الماء اختمر فى النخلة والكرمة من رائحة بول عدو الله إبليس لعنه الله).(۱۷)

هذا:

فلسفة بعث الرّسل

ولم يكتف سبحانه بالتكاليف بل أرسل الأنبياء وبعث الرسل بالهدى ودين الحق كى يرشدوا الناس إلى الله ويحكموا بين الناس فيما اختلفوا فيه، قال تعالى:

(كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم).(۱۸)

إلى أن انتهى أمر الرسالة إلى نبيِّنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلَم فرسول الله كان ذلك النور فى عالم الأنوار فمنَّ الله علينا به وجعله فى بيت النبوّة وذلك لأجل هداية البشريّة وإخراجهم من الظلمات إلى النور وإرجاعهم إلى الجنَّة التى اخرجوا منه وهو الرجوع إلى الله سبحانه المشار إليه فى قوله تعالى:

(إنا لله وإنّا اليه راجعون).(۱۹)

وهو فى الواقع:

الغاية من الخلق؟

قد صرَّح القرآن الكريم فى موارد كثيرة أنَّ الموجودات الأخر من الجمادات والنباتات والحيوانات وحتَّى الملائكة لم تخلق إلّا لأجل الإنسان، والقرآن ملىء بالآيات الدالَّة على ذلك(۲۰) نكتفى هاهنا ببعض النماذج فقط:

قال تعالى: (الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم)(۲۱) (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا..)(۲۲) (فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون)(۲۳) (وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر

لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون)(۲۴) (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون)(۲۵) (وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون)(۲۶) (الله الذى خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار)(۲۷) (وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حليه تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون).(۲۸)

خلق الإنسان

وأمّا بخصوص الإنسان هناك حديث بين المتكلمين:

فقال المعتزلة أنَّ الغاية فى إيجاد العباد هو إيصال النفع إليهم وهذا باطلٌ لأنَّه يعنى أنَّ الله قد استفاد بفعله واستكمل وهو الكامل فتعالى عن ذلك.

وأمّا الأشاعرة فقد أنكروا الغاية بالمرة وهذا يعنى أنَّ الله ليس بحكيم فى فعله كيف وكل فعل لا غاية له يكون ناقصا معطَّلا وعبثاً والله سبحانه أجلُّ من أن يصدر منه فعلٌ بلا حكمة.

وأمّا الحكماء الإلهيين يقولون أنَّه لا بدّ من غاية فى صنعه تعالى ولكن لا غاية فى صنعه وفعله وراء ذاته وذلك لأنَّه هو أجمل من كلِّ جميل وأجل من كل جليل وكل جمال وجلال وكمال ليس هو إلّا انعكاس من بهاء جماله وظلّ من شمس جلاله ورشحة من بحر كماله فمنظوره ومعشوقه لا يكون إلا ذاته تعالى ولذلك قالوا: العالى لا يلتفت إلى السافل بالذات إلا بالعرض.

ونعم ما قال الشيخ الرئيس أبو على بن سينا:

(لو إن إنسانا عرف الكمال الذى هو واجب الوجود الذى هو فوق التمام ثم فرض أنه منظم العوالم على مثاله، كان غرضه الواجب الوجود فإذا كان الواجب هو الفاعل فهو الغرض لذاته فى فعله).

شرحه:

لو أنَّ الإنسان عرف الله سبحانه وتعالى بأنَّه هو الكمال المطلق الذى ليس فيه نقصٌ أصلاً والجمال الحقيقى الذى ليس فيه عيبٌ مطلقاً وكذا سائر الصفات فمن الطبيعى أنَّه لا يطلب غيرَه ولا يرغب إلّا إليه حيث أنَّ الإنسان يعشق الأكمل والأجمل.

وهذا الكلام بعينه يجرى بالنسبة إلى الله تبارك وتعالى فهو الفاعل لجميع الأشياء فماذا ترى يكون الغرض من فعله؟ ليس هناك أى غرضٍ وغاية وراء فعله إلّا ذاته المُقدَّسة فغايته نفسُه لا شىء خارج عن نفسه تأمَّل.

أقول:

من هذا المنطلق يمكننا أن نصل إلى فلسفة الخلق فلم يخلق الله الإنسان إلاّ لنفسه لا لشىء آخر لأنَّه مهما تصورنا من غايات فهى ناقصة لا يمكن أن يتوجَّه إليها الله أصلاً فكيف تكون هى غاية لفعله يستكمل بها نفسه!!

وهناك شواهدُ كثيرةٌ من القرآن الكريم كذلك الأحاديث الشريفة تدلُّ على ذلك نكتفى هاهنا على سورة الانشقاق الآيات ۶-۸ ومن ثمَّ نشير إلى بعض النماذج الأخر من الآيات والروايات لنعطى هذا البحث المهم حقَّه إنشاء الله تعالى:

الرجوع إلى الربّ

القرآن الكريم فى هذه السورة يؤكِّد على أنَّ الإنسان سوف يرجع إلى الله قطعاً لأنَّه خلق للبقاء ورجوعه هذا يتحقق بسعى وسرعة فيقول:

(يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا)

وهذا الخطاب عام يستوعب كافَّة الناس على مختلف أديانهم ومذاهبهم حيث أنَّ الكدح إلى الربّ من مقتضيات إنسانية الإنسان لا

غير فلم يقل يا أيُّها الـذين آمنوا بل قال يا أيُّها الإنسان وهـذا الكـدح ينطلق من العشق إلى الكمال المطلق الكامن فى وجود أىّ إنسان كـان، والكمال المطلق يعنى الله سـبحانه كما أشـرنا إليه وشـرحناه فى مقالاتنا الأخرى.(۲۹) ومن ناحيـة أخرى الكلُّ بلا اسـتثناء سوف يصل إلى الغاية والمقصد (فملاقيه) فالنتيجة والغاية واضحة وهى لقاء الرب.

ومن هـذا المنطلق نعرف السرّ فى خلق الإنسـان حيث أنَّه خلق لأجـل الوصول إلى أسـمى مرتبـة وأعلى مسـتوى وهو الوصول إلى الله والرجوع إليه، وأيَّةُ غاية أخرى غير الرجوع إلى الله مهما كانت فهى غير هادفة ويكون الخلق حينئذٍ عبثاً لا حكمة فيه يقول تعالى:

(أفحسبتم أنمَّا خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون).(۳۰)

فعدم الرجوع إليه تعالى يعنى العبث وتعالى الله عن ذلك فهو المبدأ وهو المنتهى:

(وهو الأول والآخر والظاهر والباطن)(۳۱) (..الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء أول كل شئ ومصيره ومبدأ كل شئ ومعيده..).(۳۲)

ملاقاة الجمال وملاقاة الجلال

ثمَّ إنَّ هناك تمايزا رئيسيا بين الملاقِين ربَّهم وذلك التمايز يرجَع إلى كيفيَّة اللقاء فالموحد المؤمن يلاقى ربَّه سبحانه بجماله ورحمته ورأفته وحنانه ولطفه وعفوه وصفحه كما قال تعالى:

(فأما من أوتى كتابه بيمينه*فسوف يحاسب حسابا يسيرا*وينقلب إلى أهله مسرورا)

فيصل فى البدايـة إلى الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار ثمَّ يترقى إلى جنّات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضـى الله عنهم ورضوا عنه وبالأخير يصل إلى الجنَّة التى جاء ذكرها فى أواخر سورة الفجر قال سبحانه:

(يا أيتها النفس المطمئنة*ارجعى إلى ربك راضية مرضية*فادخلى فى عبادى*وادخلى جنتى)

وهذه الجنَّة التّى أضافها سبحانه وتعالى إلى نفسه هى جنّة لقاء الله على حدّ تعبير الإمام قدس سرُّه.

وأمّـا الكافر والمُلحـد والمنافق فهو يلاقى ربَّه أيضاً ولكن بجلاله وعـذابه وسـخطه وغضـبه وانتقامه لا بعفوه وصـفحه كما قال سـبحانه وتعالى:

(وأما من أوتى كتابه وراء ظهره*فسوف يدعو ثبورا*ويصلى سعيراً)

فهم يلاقون ربهم حيث يقرُّون بذلك كما قال تعالى:

(ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون)

فهم يرون جهنَّم ويرون النار الملتهبة وهم فى محضر جلال الله وغضبه وانتقامه كما قال:

(ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون)

فالنتيجة أنَّ الغاية ترجع إلى الربِّ لا غيره.

(ألا إلى الله تصير الأمور)(۳۳) (إنا لله وإنّا اليه راجعون)(۳۴) (وإنَّ إلى ربك المنتهى).(۳۵)

ومن هنا نشاهد أنَّه تعالى يقول لموسى

(واصطنعتك لنفسى).(۳۶)

ولو مررنا على الأدعية المأثورة لأذعنّا بهذه الحقيقة فإليك بعض النماذج المختصرة التّى صدرت عنهم عليهم السلام:

(لأنَّك غايـة أمنيتى ومنتهى بلوغ طلبتى فيا فرحه لقلوب الواصـلين ويا حياة لنفوس العارفين ويا نهاية شوق المحبين أنت الذى بفنائك حطت الرحال وإليك قصدت الآمال)(۳۷) (يا رباه يا سيداه يا غاية رغبتاه)(۳۸) (يا غاية أمل الآملين)(۳۹) (يا غاية الطالبين)(۴۰) (يا غاية الراغبين ومنتهى أمل الراجين).(۴۱)

الهوامش

---

(۱) بحار الأنوار ج ۷۴ ص ۲۷۱ رواية ۱۰ باب ۱۶. (۲) البقرة ۳۶ والأعراف ۲۴. (۳) الانسان۱. (۴) الجاثية ۲۴. (۵) يس ۴۱-۴۴. (۶) النحل ۸۰. (۷) ص۷۹. (۸) الإسراء ۶۲. (۹) القصص ۶۱. (۱۰) بحار الأنوار ج ۵۳ ص ۷۶ رواية ۷۹ باب ۲۹. (۱۱) بحار الأنوار ج ۹ ص ۲۹۴ رواية ۵ باب ۲. (۱۲) بحار الأنوار۹۶ ص ۳۶۸ رواية ۴۹ باب ۴۶. (۱۳) الآداب المعنوية للصلاة۱۳۶-۱۳۸. (۱۴) البحار ج۵ ص۲۴۵ رواية۳۵ باب۱۰. (۱۵) بحار الأنوار ج ۹۹ ص ۳۳ رواية ۱۰ باب ۴. (۱۶) بحار الأنوار ج ۱۰ ص ۷۵ رواية ۱ باب ۵. (۱۷) الكافى ج۶ ص۳۹۳ رواية۲. (۱۸) البقرة ۲۱۳. (۱۹) البقرة ۱۵۶. (۲۰) راجع بحار الأنوار ج ۲ ص ۲۷۰ رواية ۲۸ باب ۳۳ و ج ۳ ص ۱۷ رواية ۲ باب ۳. (۲۱) البقرة۲۲. (۲۲) البقرة ۲۹. (۲۳) المؤمنون ۱۹. (۲۴) فاطر ۸. (۲۵) لقمان ۱۹. (۲۶) إبراهيم ۳۲. (۲۷) النحل ۱۴. (۲۸) ۴النحل ۱۴. (۲۹) راجع الأربعون حديثاً. (۳۰) المؤمنون ۱۱۵. (۳۱) الحديد۳. (۳۲) بحار الأنوار ج ۹۵ ص ۴۲۳ رواية ۴۳ باب ۱۲۹. (۳۳) الشورى ۵۳. (۳۴) البقرة ۱۵۶. (۳۵) النجم ۴۲. (۳۶) طه ۴۱. (۳۷) بحار الأنوار ج ۹۴ ص ۱۱۱ رواية ۱۶ باب ۳۲. (۳۸) بحار الأنوار ج ۸۶ ص ۷۵ رواية ۱۰ باب ۳۹. (۳۹) بحار الأنوار ج ۹۰ ص ۱۷۱ رواية ۱۹ باب ۹. (۴۰) بحار الأنوار ج ۹۵ ص ۲۸۱ رواية ۴ باب ۱۰۸. (۴۱) بحار الأنوار ج ۹۸ ص ۲۲۳ رواية ۳ باب ۲.

خُلقنا للبقاء

ولو تـدبَّرنا النفس وحالاتها وتجرُّدها لعرفنا أنَّه تعالى لم يخلقها لأن تعيش سـنوات ثمَّ تهلك بالمرَّة لأنَّ ذلك خلاف الحكمـة الإلهيَّة وخلاف عدالته ومن هنا نشاهد الكثير من الأحاديث تؤكِّد على ذلك:

(عن الحميرى عن هارون عن ابن زياد قال قال رجل لجعفر بن محمـد عليه السـلام يا أبا عبـد الله انا خلقنا للعجب قال: وما ذاك؟ اللّه أنت! قال:خلقنا للفناء. فقال: مَه يا بن أخ خلقنا للبقاء وكيف تفنى جنةٌ لا تبيد ونار لا تخمد ولكن قل إنما نتحول من دار إلى دار).(۱)

أقول: الباقى ليس هو إلّا وجه الله سبحانه لصريح قوله تعالى: (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام).(۲)

فكيف يمكن أن يبقى الإنسان وتبقى الجنَّة والنار؟ وليس ذلك إلّا لأنَّ الآخرة إنَّما هو وجه الربِّ سواء كان ذلك جلال الرب وغضبه أو جماله ورحمته وإكرامه ومن هنا ذكرت الصـفتان (ذو الجلال والإكرام) فالنار والجنَّة منطلقهما هو الصـفتان أعنى الجلال والإكرام، فجلاله تعالى ظهر فى النار كما أنَّ إكرامه ظهر فى الجنَّة حيث أنَّها ليست هى إلّا دار كرامته تعالى وجميع نعمها أيضاً تنطلق من تلك الصـفة العظيمـة، لاـ كنعم الـدنيا فليست النعم تلـك إلاّـ ظهوراً لرحمـانيته تعالى ومن هنا نلاحظ البونٌ البعيـد بين فواكه الـدنيا وفواكه الآخرة حيث قال تعالى: (أولئك لهم رزق معلوم فواكه وهم مكرمون فى جنات النعيم على سرر متقابلين).(۳)

فـالرزق المعلوم المختصّ للمخلصـين من العباد ليس هو الفاكهـة بما هى فاكهـة حيث لا قيمـة لها مادام قـد سـخَّرها الله ومنحها للخلق أجمعين فى الدنيا الدنيَّة فتأكلها الحيوانات بل حتَّى الكفّار والمشركين،بل الأهميَّة لتلك الصفة الإلهيَّة أعنى الإكرام التّى صبغت تلك الفاكهة صبغةً روحانيَّة فهى ليست متاع كما هو المشاهد فى فواكه الدنيا.

ثمَّ إنَّ الآية التالية أيضاً تدلُّ على ما نحن بصدد إثباته

(ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شىء هالك إلّا وجهه له الحكم وإليه ترجعون).(۴)

وهاهنا يجب التأمُّل فى قوله وإليه تُرجعون لنعلم معنى بقاء الإنسان وعدم فنائه بالمرَّة لأنَّه سوف يرجع إليه تعالى:

(إنَّ إلى ربك الرجعى).(۵)

ولو لم نقل برجوع الإنسان إلى ربِّه لما أمكننا أن نتصوَّر بقائه فى الجنَّة أو النار خالداً وقد شرحنا هذا الأمر فلا نكرر.

ثمَّ إنَّه من المفروض أن يبقى الإنسان خالداً فى جوار رحمة الله لا غضبه ولأجل ذلك خُلق الإنسان وقد صرَّحت الآية التالية بذلك:

(إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين).(۶)

والرحمة لها مراتب عديدة من أعلى مراتبها رضوان الله تعالى كما فى الحديث التالى:

(علل الشرايع الطالقانى عن عبد العزيز بن يحيى الجلودى عن محمد بن زكريا الجوهرى عن جعفر بن محمد بن عمارة عن أبيه قال سألت الصادق جعفر بن محمد عليه السلام فقلت له لم خلق الله الخلق فقال إن الله تبارك وتعالى لم يخلق خلقه عبثا ولم يتركهم سدى بل خلقهم لإظهار قدرته وليكلفهم طاعته فيستوجبوا بذلك رضوانه وما خلقهم ليجلب منهم منفعة ولا ليدفع بهم مضرة بل خلقهم لينفعهم ويوصلهم إلى نعيم الأبد)(۷) (يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم)(۸) (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم).(۹)

فالرضوان الإلهى أكبر بنحو مطلق وليست هناك منزلة أعلى وأرقى منه وذلك هو الفوز العظيم.

الرؤية الكونية ورحمة الربّ:

ولا يخفى أنَّ رحمة الله لا تختص بالآخرة بل هى فى الدنيا أيضاً فالإنسان الذى لا يعيش الاختلاف والنزاع ولا يعيش كثرات المادة فهو بالفعل مشمول لرحمة الله تعالى لأنَّ حالته النورانيَّة والمعنوية التى اكتسبها تجعله يعيش الذكر الدائم والاطمئنان المستمر (ألا بذكر الله تطمئن القلوب).

والسعادة الحقيقية، وذلك لأنه رغم تواجده فى الدنيا يعيش عالم والملكوت بل الجبروت وينزجر من عالم الملك كما قال أمير المؤمنين عليه السلام مخاطباً همّام:

(لولا الأجل الذى كتب الله عليهم لم تستقر أرواحهم فى أجسادهم طرفه عين شوقا إلى الثواب و خوفا من العقاب عظما).(۱۰)

ومن هنا نراه يستغفر الله بمجرد توجهه إلى عالم الملك والمادة وإن كان هذا التوجه من غير قصدٍ أو أن التكليف فرض عليه ذلك، كما كان على عليه السلام حيث كان يحكم بين الناس وهو على كرسيِّ الخلافة والقضاء فالحكم بين الناس أمر لا بد منه ولكن رغم ذلك كان يجعله يعيش فى عالم الملك ولو ساعات ومن أجل هذا الأمر كان فى قيام الليل وأوقات السحر يبكى حتى يغمى عليه ويتوب كما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

(ليران على قلبى وإنى لأستغفر الله فى كل يوم سبعين مرة)

ثم إنه ليس هناك أى انفصال بين هذه الحالة النورانية ونورانية البرزخ والقيامة بل كلها أمر واحد حيث أن عالم التجرد لا تعتريه الكثرة والتفرق فلا زمان يحكمه ولا مكان يحدُّه فالجنة الحقيقية يعيشها المؤمن وهو على الأرض والنار يعيشها الكافر وهو على الأرض.

العبودية = الرجوع إلى الله =الرحمة الإلهية

ومن خلال ما ذكرنا اتَّضح لك أن العبودية المنصوصة فى قوله تعالى:

(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)

تعنى الرجوع إلى الله والعيش فى ظل كرامته المستفادة من قوله تعالى

(أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون)

وهى بنفسها الرحمة الإلهية المذكورة فى قوله تعالى:

(ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم)

وقال إمامنا سيِّد الساجدين زين العابدين عليه السلام:

(.. ولم تترك عبادك هملا ولا سدى ولم تدعهم بغير بيان ولا هدى ولم تدعهم إلا إلى الطاعة ولم ترض منهم بالجهالة والإضاعة بل خلقتهم ليعبدوك..)

العبودية الاجتماعية

وما ذكرناه إنما كان على صعيد الفرد لا المجتمع.

(الكافى عـدة من أصـحابنا عن احمـد بن محمـد عن ابن أبى نصـر عن حماد بن عثمان عن أبى عبيدة الحذاء قال سالت أبا جعفر عليه السـلام عن الاسـتطاعة و قول الناس فقال و تلا هـذه الآيـة و لا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك و لـذلك خلقهم يا أبا عبيـده الناس مختلفون فى أصـابه القول و كلهم هالك قال قلت قوله إلا من رحم ربك قال هم شـيعتنا و لرحمه خلقهم و هو قوله و لـذلك خلقهم يقول لطاعة الإمام).(۱۱)

وسـيتضح لك هـذا إنشاء الله تعالى كلام الإمام قدِّس سرُّه حول الغاية من الخلق وللإمام قدِّس سرُّه الشـريف كلامٌ لطيف حول غاية أفعال الله تعالى نكتفى بخلاصة ما ذكره فى كتابه القيِّم الأربعون حديثاً

قال الإمام رضوان الله تعالى عليه:

(يقول المحققون من الفلاسـفة أنَّه لا توجد غاية لأفعال الله سوى ذاته وتجلِّياتها، ولا يمكن أن يكون لذاته المقدَّسة فى إيجاد الأشـياء هـدف آخر وراء ذاته وظهوره وتجليه المقـدَّس،لأنَّ أىَّ فاعلٍ لو أوجـد شـيئاً بغايةٍ غير ذاته(ما وراء ذاته) مهما كانت تلك الغاية، وإن كانت إيصال الفائـدة والمثوبـة للغير، أو كانت الغايـة العبادة والمعرفـة أو الثناء والحمـد، كان هـذا الفاعل مسـتكملاً بهذه الغاية وكان وجودها بالنسـبة إليه أولى من عدمها، وهذا يسـتلزم النقص والقصور والانتفاع، وهذا محال على الذات المقدس الكامل على الإطلاق، الغنى بالـذات والواجب من جميع الجهـات، فـإذاً لا يُستفسَـر عن أفعاله ولا يُوجَّه إليه لِمَ (لا يُسأل عمّا يفعل) وأمّا الموجودات الأخرى فإنَّ لها غايات ومقاصد أخرى غير ذاتها (وذلك لأنَّها ناقصة ذاتاً وفعلاً)(وهم يُسألون".(۱۲)

المطلوب من الإنسان

وقـد حان طرح السؤال الرئيسـى الذى هو فى الواقع الحلقة التّى تربط أبحاثنا السابقة بما سـنتحدَّث عنه فيما بعدُ وهذا السؤال هو:ما هو المطلوب من الإنسان؟ قد ذكر سبحانه وتعالى بصريح القول أنَّه:

(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون).(۱۳)

فالمطلوب منه إذاً هو العبادة لا شيءٍ آخر والسؤال الذى يطرح نفسه هو:

ماذا تعنى العبادة ... .هل هى الصلاة والصوم والزكاة والحج وغيرها من الأفعال؟ أم هى شئٌ آخر ما وراء هذه الأفعال والأقوال؟

أقول:

عنـدما نلاحـظ كلّ هـذه الأفعال نشاهـد أنَّ هناك أمراً مُشترك يحكمها جميعاً وذلك الأمر المشترك هو النيَّة وينبغى أن تكون تقرُّباً إلى الله ولولا القربـة لما أطلق على العمل عبادة أصـلاً فإذاً قوام العبادة بالنيَّة ومن الواضح أنَّ النيَّة ليست من الأعمال الجوارحيَّة بل هى حالةٌ قلبيَّة كامنة فى نفس الإنسان فإذاً أساس العبادة أمرٌ نفسىٌ باطنىّ.

ماذا تعنى قربةً إلى الله

ولا يخفى معنى هـذه الكلمـة فهى تعنى الوصول إلى الله نفسِه والاسـتقرار فى جواره والابتهاج بلقائه، فهـذا الأمر ممكنٌ للإنسان ولولا إمكـانه لمـا طلب منه ذلـك ولمـا ذُمَّ تـاركه كمـا تـدلُّ على ذلك الآيات الكثيرة والأحاديث المتواترة ولأهميَّة هـذا البحث نجعله فى عنوانٍ مستقل فنقول:

لقاء الله:

[تمهيد]

بعد أن اتَّضح لنا بأنَّ النفس هى نفحة من نفحات الرحمن ومظهر من مظاهره الذى قد تجلَّى فيه الجمال والجلال كما شرحنا سابقاً فى تفسير قوله تعالى:

(ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى)

وبعد أن عرفنا حقيقة خليفةَ الله، يمكننا أن نعرف المقصود من لقاء الله الذى يتحدَّث عنه سبحانه فى كتابه العزيز،وليس هو إلّا معرفة الله سبحانه بالقلب الذى يتبع معرفة الإنسان لنفسه، ولا ينبغى لنا أن نَصرف جميع هذه الآيات الصريحة عن ظاهرها اعتمادا على فهمنا القاصر وأذهاننا المحدودة المؤطَّرة بأفكار ربَّما هى ليست إلاّ أوهام متلبِّسة بلباس الحقائق تلك الأفكار التّى جعلت الكثير يحرِّف الكلم عن مواضعه ويُفسِّر القرآن برأيه.

اللقاء فى القرآن و السنَّة

و لا يمكننا الوصول إلى هذا المستوى إلّا بعد أن عرفنا بأنَّه تعالى:

(مع كلِّ شىءٍ لا بمقارنة وغير كلّ شىءٍ لا بمفارقة)

فحينئذٍ سوف نعلم أنَّه تعالى هو أوضح من كلِّ شىء حيث أنَّ قوام جميع الأشياء به لأنَّه هو الوجود المطلق الغنىّ بالذات وجميع الوجودات الأخرى فقيرةٌ بالذات إليه (أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى) وبالأحرى ليس هناك إلاّ وجود واحد ظهر فى الأشياء والكلُّ تجلِّياته تعالى ومظاهره، والعبد بمقدار معرفته نفسَه وإحساسه فقرَه ومسكنته وأنَّه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حيوةً ولا نشوراً، بنفس المستوى سوف يعرف ربَّه ويصلُ إليه حيث يغفل حينئذٍ عن مشخصاته الفردية وماهيته المحدودة ويعرف أنَّ تلك المشخصات لم تكن إلاّ أوهام فليس وراء الوجود شىءٌ آخر فلا يعشق إلاّ الله ولا يعبد إلاّ الله ولا يريد إلاّ الله فحينئذٍ سوف لا يكون ممن قال تعالى عنهم (..ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شىء محيط)(۱۴) لأنَّه بالفعل قد عرف بأنَّ الله سبحانه بكلِّ شىءٍ محيط فلا يكون فى مريةٍ من لقاء ربِّه بل يكون مصداقاً لقوله تعالى (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون)(۱۵)

وهذا سيِّد الشهداء أبو عبد الله الحسين عليه السلام ينادى:

(تركت الخلق طرّاً فى هواكا * * *وأيتمت العيال لكى أراكا)

لذَة الوصال ونار الفراق

إنَّ جميع اللذات الدنيوية إنَّما هى ترجع إلى نفس الإنسان فهى التّى تلتذ وهى التى تبتهج ولكن حيث أنَّ النفس مسجونة فى الجسم نراها بواسطة الحواس الخمسة تتعامل مع الأشياء فتنظر إلى الوردة الجميلة فتلتذ من تلك الرؤية فهى فى الواقع لا تلتذ من الوردة ولا تريدها كوردة بل النفس تلتذ بالجمال وتحبُّ الجمال فلو فقدت الوردة جمالَها فلا تحبُّها أصلاً، وهكذا بالنسبة إلى كلِّ هالك وآفل،فالمطلوب إذاً هو الجمال والكمال غير المحدود وغير المؤطَّر، وهو الله سبحانه ومن هنا نشاهد النبى إبراهيم ينفى كلَّ آفل وبالأخير يصل إلى الربّ (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكوننَّ من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين).(۱۶)

وللإمام فى كتابه القيِّم شرح دعاء السحر بيان حول الآية نحيل القرّاء الكرام إلى مراجعة الكتاب.(۱۷)

فالله سبحانه هو الذى يكون مطلوباً للإنسان وهو الذى يأنس به العارف لا غيره (يا من اسمه دواء وذكره شفاء)(۱۸)

ولا يمكن أن يسرَّ العارف إلّا الله نفسه كما فى دعاء الجوشن الكبير:

(يا سرور العارفين يا منى المحبين يا أنيس المريدين يا حبيب التوابين يا رازق المقلين يا رجاء المذنبين يا قره عين العابدين)(۱۹) (يا سرور الأرواح و يا منتهى غايهٔ الأفراح).(۲۰)

وعلى ضوء ذلك يمكننا معرفهٔ الأحاديث الكثيرهٔ التّى تؤكِّد على عبادهٔ الأحرار التى تنبع عن الحبِّ والعشق بالله:

(الطالقانى عن عمر بن يوسف بن سليمان عن القاسم بن إبراهيم الرقى عن محمد بن احمد بن مهدى الرقى عن عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن انس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: بكى شعيب عليه السلام من حب الله عز و جل حتى عمى فرد الله عز و جل عليه بصره ثم بكى حتى عمى فرد الله عليه بصره ثم بكى حتى عمى فرد الله عليه بصره فلما كانت الرابعهٔ أوحى الله إليه يا شعيب إلى متى يكون هذا أبدا منك إن يكن هذا خوفا من النار فقد آجرتك و إن يكن شوقا إلى الجنَّهٔ فقد أبحتك فقال إلهى وسيدى أنت تعلم إنى ما بكيت خوفا من نارك و لا شوقا إلى جنتك و لكن عقد حبك على قلبى فلست أصبر أو أراك فأوحى الله جل جلاله إليه أما إذا كان هذا هكذا فمن أجل هذا سأخدمك كليمى موسى بن عمران).(۲۱)

(وقال أمير المؤمنين و سيد الموحدين صلوات الله عليه ما عبدتك خوفا من نارك و لا طمعا فى جنتك لكن وجدتك أهلا للعبادهٔ فعبدتك).(۲۲)

وفى قبال لذَّهٔ الوصال هناك نار الفراق الذى لا يمكن تصوُّر شدته ذكره أمير المؤمنين عليه السلام فى دعاء الكميل.

قال الإمام قدِّس سرُّه (إنَّ دعاء الكميل دعاء عجيب للغايهٔ، بعض فقراته لا يمكن أن تصدر من البشر العادى (إلهى وسيدى ومولاى وربى صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك) فمن يمكنه أن يقول هذا الكلام؟ من يمتلك هذا العشق للجمال الإلهى بحيث لا يخاف من النار، لكنَّه يخاف أنَّه إذا دخل النار ينزل من مقامه ويصل إلى مرتبهٔ يُحرم من عشقه؟ إنَّه يصرخ من فراق ذلك العشق بالله المجمر فى قلبه الذى لا يعمل عملاً إلا من منطلق ذلك العشق).(۲۳)

وقال فى كلمهٔ أخرى:

(إنَّ نار جهنَّم مضافاً إلى أنَّها تُحرق الجسم تُحرق القلب (القلب المعنوى)أيضاً فهى تدخل القلب، مع ذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام (فهبنى صبرت على عذابك..)!).(۲۴)

لقاء الله فى القصيدهٔ العرفانيَّهٔ للإمام

ومن هنا يمكننا أن نصل إلى محتوى القصيدهٔ العرفانيهٔ التّى أنشدها الإمام قدّس سرُّه، تلك القصيدهٔ التّى أهداها إلى الأمَّهٔ الإسلاميَّهٔ نجله السيد أحمد رضوان الله تعالى عليه وذلك بعد وفات الإمام ونحن نحاول أن نشرح البيتَ الأوَّل والثانى منها فحسب قال إمامنا:

(من بخال لبت أى دوست كرفتار شدم *** جشم بيمار تو را ديدم وبيمار شدم)

يقول الإمام: أنا ابتليت بخال شفتك يا محبوب وقد شرحنا معنى الخال سابقاً فراجع.ونظرت إلى عينك الخمول والعين الخمولهٔ هى التى نوصفها بالغض فهى لا تتصف بالغمض ولا بالفتح وهذه الحالهٔ للعين تُبرِز جمال المحبوب وتضفى من جماله وإنَّما يقصد الإمام من ذلك الجذبات الإلهيَّهٔ وأسرارها التّى تصل إلى العاشق وتُفهمُه أنَّ معشوقه ومحبوبه مع علمه الكامل بحاله ومعرفته بعبده، مع ذلك فهو يستر على ذنوبه ويتغاضى عن زلّاته.

(غافل از خود شدم وكوس أنا الحق بزدم *** همجو منصور خريدار سر دار شدم)

ثمَّ يقول الإمام قدِّس سرُّه:

إنِّى قد غفلت عن نفسى وهذه مرتبهٔ راقيهٔ جدّاً لا يصل إليها إلّا الأوحدى والمقصود من كلامه هو أنَّنى قد انفصلت عن كلِّ شىءٍ

يرجع إلى شخصيتى الموهومة وتباعدت عن كلِّ أمر يمسُّ أنا والأنانيَّةُ رأس كلِّ خطيئة حيث أنَّها تبعدُ الإنسان عن الله وتغمسُه فى متاهات الدنيا وآثارها الدنيَّة وزخرفها وزبرجها،فبمقدار إبتعاد الإنسان عن الجانب السفليِّ من نفسه سوف يتقرَّب إلى الجانب العلويِّ منه وهذا يعنى تقرُّبه إلى الحقّ المطلق وهو الله سبحانه وتعالى، فحينئذٍ برى نفسَه مظهر تامّ من مظاهر الحق وآية من آياته جلَّ وعلا فينادى أنا الحق ولكن عندما يرجع إلى هويَّته يرى أنَّ هذا النداء والصراخ لم يكن فى محلِّه لأنَّه لا زال فقيراً ولا زال ناقصاً فماذا يطلب بعد ذلك؟

يقول إمامنا قدِّس سرُّه: (همجو منصور خريدار سر دار شدم) فحينئذٍ تمنَّيت الموت كما تمنَّى ذلك منصور الحلاج وكنت من المشترين الطالبين للمشنقة لأنَّه رأيت مادام أنَّنى محبوس فى هذا البدن المادِّى فمن المستحيل أن أصل إلى اللقاء الإلهى وأستقرَّ تحت ولايته إلاّ أن أموت (قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين).(۲۵)

ومن هنا نصل إلى أمر آخر وهو أنَّ العارف لا يمكنه أن يصل إلى لقاء الله الأتَّم إلاّ بعد انفصاله عن الجسم المادِّى ورجوعه إليه تعالى إمّا بالقتل فى سبيل الله والوصول إلى الشهادة وإمّا بالموت المتداول حيث الانفصال من عالم الطبيعة (وفى الحديث القدسى من عشقته فقد قتلته ومن قتلته فعلى ديته ومن على ديته فأنا ديته)(۲۶) وعلى ضوء ذلك يمكننا أن نعرف معنى الآيتين

(من كان يرجو لقاء الله فان أجل الله لآتٍ وهو السميع العليم)(۲۷) (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربِّهم وأنَّهم إليه راجعون)(۲۸)

فتأمَّل فيهما وتدبَّر محتواهما لتعرف أنَّ كلام الإمام إنَّما هو نابع من القرآن الكريم. وفى قبال هؤلاء هناك من لا يرجو لقاء الله وذلك لانغماره فى الدنيا التى تُبعده عن تمنِّى الموت كما قال تعالى:

(إن الذين لا يرجون لقاءنا و رضوا بالحياة الدنيا و اطمأنوا بها و الذين هم عن آياتنا غافلون).(۲۹)

والمهمُّ هو العمل طبقاً للشريعة المقدَّسة فهو الذى يجعل المؤمن بالفعل من مصاديق الراجين لقاء الله وقد بيَّن سبحانه ذلك فى قوله تعالى:

(فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا).(۳۰)

الرجوع إلى الله

إنَّ المقامات التّى يصل إليها الإنسان سواء فى عالم الملك والدنيا أو الملكوت والبرزخ أو الجبروت والآخرة ليس بينها أىّ اختلاف وتعدُّد بل هى حقيقة واحدة راجعة إلى النفس الإنسانيَّة، ولا يخفى أنَّ النفس لبساطتها وتجرُّدها هى التّى تُدرك تلك المراتب فالدنيا ليست هى إلاّ إدراك النفس وموقفها بالنسبة إلى المادة كما أنَّ البرزخ ليس هو إلاّ وصول النفس إلى مستوى من الرُقىِّ أو النزول بحيث يمكنها أن تُدرك اللذات أو الآفات ونفس الكلام بالنسبة إلى الجنَّة فلولا النفس وحالاتها لما كانت الدنيا ولا البرزخ ولا الآخرة ولهذا نرى أنَّه تعالى يقول (هم درجات) فالدرجات ترجع إلى الإنسان نفسه وقد ثبت هذا الأمر فى محلِّه وليس هنا مجال لشرحه بالتفصيل.

ثُمَّ: مستوى الفرد فأيضاً كان يعيش القرب الإلهى كما شرحنا فلا بدَّ له من الرجوع.

إنَّه كما أن الإنسان على مستوى الفرد كان يعيش القرب الإلهى ولا بدَّ له من الرجوع إلى الله فكذلك على مستوى المجتمع، فغاية المجتمع هى الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى، توضيحاً لهذا الأمر ينبغى أن نتحدَّث عن:

الفصل السابع: الغاية من التشريع العلَّة الغائيَّة

[تمهيد]

لا يحدث أيُّ شيء فى الكون ولا يتحقق أيُّ معلول إلاّ بعد تواجد علته التامَّة وهذا أصل ثابت عقلاً من أراد أن يتطلَّع عليه بالتفصيل فليراجع كتبَ الحكمة المتعالية.

ثمَّ: إنَّه يستحيل تحقق أمرٍ ممكن إلاّ بتواجد علله الأربعة وهى:

الفاعلية – الماديَّة – الصوريَّة – والغائيَّة.

ولا بأس بتوضيح ذلك من خلال ذكر مثال فنقول:

لو أردنا صنع كرسيٍّ خشبى بمواصفات خاصَّة فلا يمكن أن يتحقق ذلك الكرسى بتلك المواصفات إلاّ بتحقق تلك العلل الأربعة: فيلزم وجود نجّارٍ يمثِّل الفاعل لذلك الكرسى فلولا الفاعل لما حدث الفعل، والأخشاب التّى تمثِّل مادته ولولا المادة لما تواجد الشيء، وصورة الكرسى أعنى شكله الخاص المتميِّز عن شكل السرير والباب وغيرهما من الأشياء المصنوعة من الخشب، والغاية من ذلك الكرسى التى هى الجلوس عليه وإلاّ لم يكن الكرسى كرسياً، و من المعلوم أنَّ العلة الغائية مقدمَّةٌ علماً مؤخرة عيناً كما قيل أوّل الفكر آخرُ العمل، فأوَّل ما يتصوَّره النجّار هو الغاية من الكرسى أعنى الجلوس كما أنَّ أوَّل ما يتحقق فى الخارج هو الجلوس، ولا يخفى دور العلَّة الغائية فى فعل الفاعل فالغاية هى التّى تدعو الفاعل إلى الفعل ولولاها لم يفعل، ولذا قال الحكماء العلة الغائية علة فاعليةُ الفاعل.

وأيضاً الغاية لها دور رئيسى فى كيفيَّة الفعل وكميَّة المادة وكيفيَّة الصورة المنتخبة فالعلَّة الغائية هى التّى تُخيِّم على سائر العلل وتوِّجهها توجيهاً ينسجم مع الغاية.

الغاية من الدين

الدين بما له من المعنى له علَّة فاعليَّة وهى مؤسِّسُه وشارعُه، وله علَّة ماديَّة وهى محتواه، وله علَّة صورية وهى ما تسمَّى بالشريعة التّى تتمثَّل فى العبادات والنُسُك المختلفة، وهناك علَّة غائيَّة للدين وهو الغرض من الشريعة، فما هى تلك؟ وما هى علَّة بعث الرسل وإنزال الكتب؟

من الطبيعى أنَّه للوصول إلى جواب صحيح ينبغى لنا مراجعة القرآن الكريم، يقول سبحانه:

(هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)(۳۱) و فى آية أخرى (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً).(۳۲)

فالغاية العمليَّة من بعث الرسول هى أن يظهر الله دينه على الدين كلِّه، وهذا لا يمكن إلاّ مع تمكين الدين على كلِّ البسيطة حتَّى لا تكون فتنة ويكون الدين كلُّه لله، وعلى ضوء هذه الغاية يمكننا فهم روح جميع العبادات فالعبادة التّى لا تنطلق من هذه الغاية لا قيمة لها لأنَّها تكون حينئذٍ عشوائيَّة.

ومن هنا نعرف السرّ فى ما سنتحدَّث عنه فى خاتمة الحديث بالتفصيل من أنَّ أفضل العبادة هو انتظار الفرج، وهذه الغاية هى الوعد الحسن الذى جاء فى قوله تعالى (أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين)(۳۳) والذى شرحناه سابقاً وأيضاً هى التى يذكرها الله فى قوله (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون).(۳۴)

فإذاً لا يمكننا تفسير الدين تفسيراً صحيحاً ومعرفته معرفةً مستوعبة شاملة إلاّ أن ننطلق من تلك الغاية.

ثمَّ إنَّ هناك مسألة أخرى ينبغى لنا التأمُّل فيها وبالأحرى سؤال مهمٌّ يجب الإجابة عنه وهو:

ماذا يعنى ظهور الدين؟ و ماذا سيكون بعد ذلك؟

أقول:إنَّ ظهور الدين وتمكينه لا يعنى إلّا حكومة الله على الأرض والاستقرار فى جواره تعالى وزوال الشرك به من رأس، الجلى منه والخفىّ (يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً)(۳۵) وبعبارة أخرى ظهور الدين يعنى:

الرجوع إلى الله

فالهدف من التشريع إذاً هو رجوع المجتمع إلى الله كما أنَّ فلسفة العبادات هى رجوع الإنسان إلى الله والاستقرار فى جواره ولا يخفى أنّ كلمة الرجوع لا يمكن إطلاقها إلّا فى موارد خاصَّة قال الإصفهانى فى مفرداته فى بيان كلمة رجع، الرجوع العود إلى ما كان منه البداء أو تقدير البدء مكاناً كان أو فعلا أو.. فمن الرجوع قوله تعالى: (لئن رجعنا إلى المدينة فلما رجعوا إلى أبيهم ولما رجع موسى إلى قومه وإن قيل لكم ارجعوا فأرجعوا). (إن إلى ربك الرجعى) وقوله تعالى: (ثم إليه مرجعكم) يصح أن يكون من الرجوع كقوله (ثم إليه ترجعون) ويصح أن يكون من الرجع كقوله (ثم إليه ترجعون).

الهوامش

---

(۱) بحار الأنوار ج ۵ ص ۳۱۳ رواية ۳ باب ۱۵. (۲) الرحمن ۲۶-۲۷. (۳) الصافات ۴۱-۴۴. (۴) القصص ۸۹. (۵) العلق۸. (۶) هود ۱۱۹. (۷) بحار الأنوار ج ۵ ص ۳۱۳ رواية ۲ باب ۱۵. (۸) التوبة ۲۱. (۹) التوبة ۷۲. (۱۰) بحار الأنوار ج ۶۷ ص ۳۱۵ رواية ۵۰ باب ۱۴. (۱۱) بحار الأنوار ج ۵ ص ۱۹۵ رواية ۱ باب ۷. (۱۲) الأربعون حديثاً الحديث ۳۵. (۱۳) الذاريات ۵۶. (۱۴) فصلت ۵۳-۵۴. (۱۵) البقرة ۴۶. (۱۶) الأنعام۷۵ -۷۹. (۱۷) شرح دعاء السحر ۲۶-۲۹. (۱۸) دعاء الكميل. (۱۹) بحار الأنوار ج ۹۴ ص ۳۸۹ رواية ۳ باب ۵۲. (۲۰) بحار الأنوار ج ۹۴ ص ۱۱۱ رواية ۱۶ باب ۳۲. (۲۱) بحار الأنوار ج۱۲ ص ۳۸۰ رواية۱ باب۱۱. (۲۲) بحار الأنوار ج ۷۰ ص ۱۸۶ رواية ۱ باب ۵۳. (۲۳) صحيفة النور ج۱۹ص۶۱. (۲۴) صحيفة النور ج۱۹ص۲۸۶. (۲۵) الجمعة ۶. (۲۶) شرح الأسماء الحسنى للسبزوارى ج ص وأيضاً الحديث المنقول من مجالس الشيخ عن ابن عبدون عن ابن الزبير عن ابن فضال عن فضل بن محمد الاموى عن ربعى بن عبد الله عن الفضيل بن يسار عن ابى جعفر عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال الله عز و جل الصوم لى و انا أُجزى به دليل على ذلك فجزاء الصوم إنّما هو الله كما أكَّد على ذلك الإمام قدس سرُّه أيضاً. راجع بحار الأنوار ج ۹۶ ص ۲۵۵ رواية ۳۵ باب ۳۰. (۲۷) العنكبوت ۵. (۲۸) البقرة ۴۶. (۲۹) يونس ۷. (۳۰) الكهف ۱۱۰. (۳۱) الصف ۹ والتوبة ۳۳. (۳۲) الفتح ۲۸. (۳۳) القصص ۶۱. (۳۴) النور ۵۵. (۳۵) النور ۵۵.

فلا رجوع من غير بداية وحيث أنّنا كنّا لله فلابد أن نرجع إليه وذلك على الصعيدين الفردى والاجتماعى، فأساس الأمَّة كانت فى جوار الله حيث كان آدم وكانت حواء يعيشان فى الجنَّة التّى شرحنا عنها فلا بد من الرجوع إلى تلك الجنَّة مرَّةً ثانية حيث يظهر الله الدين على الدين كلِّه ولوكره المشركون وهذه الجنَّة هى من جنات الأرض وهى دولة المهدى عجل الله تعالى فرجه الشريف كما ستعرف عند مقايسة تلك الدولة مع جنَّة آدم عليه السلام.

سبيل الوصول إلى تلك الدولة المباركة

ثمَّ إنَّ ههنا سؤالاً وهو:

ما هى الوسيلة التى تجعل الإنسان يتصوَّر تلك الدولة النورانية فيصدِّق بها فيرغب فيها وينتظرها ويحاول تحقيقها؟

أقول: جواباً على هذا السؤال سوف نتحدَّث عن مفردة من أهم المفردات فى الشريعة المقدَّسة ألا وهى:

الفصل الثامن: الذِّكر

[تمهيد]

فعند التأمُّل فى التكاليف جميعها نرى بأنَّ الجامع بينها هو أمرٌ واحد وهو الذكر فالذكر هو الغاية النظرية لجميع العبادات وهو الحلُّ الوحيد للإنسان الهابط ذلك الإنسان الذى افتقد حالةً معنويةً ساميةً، حيث كان يعيش فى جوار ربه عيشةً يأكل من جنته حيث شاء رغداً ويتنعم بنعيمه.

فبعد هبوطه من ذلك المقام ينبغى له (على أقلِّ التقدير) أن لا ينسى ذلك فيكون دائما فى ذُكرٍ ممّا كان فيه ولا يغفل عن الله على أىِّ حال ولا تشغله الأموال والأولاد وظواهر الدنيا عن الذكر (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم و لا أولادكم عن ذكر الله و من يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون).(۱)

وهذا الذكر المستمر سوف يجعله دائماً يتوقع الوصول إلى ذلك المقام ويرغب فيه و ينتظره وتبعاً لذلك سوف يجعله يشمئز وينزجر من الدنيا وزخارفها ويفكِّر فى خلاص نفسه منها وهذان الجانبان هما اللذان يُشكِّلان روح جميع المناسك والعبادات. ومن هذا المنطلق صار الذكر هو أفضل من جميع العبادات حيث أنَّه هو روح العبادة!!

ويكفى فى إثبات أفضليَّته أنَّ الصلاة التى هى عمود الدين وأهم العبادات لم تشرَّع إلّا للذكر يقول سبحانه: (إننى أنا الله لا اله إلا أنا فاعبدنى و أقم الصلاة لذكرى).(۲)

وقال تعالى (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون).(۳)

فالنهى عن الفحشاء والمنكر ليس هو الغاية القصوى من الصلاة بل ذلك يرجع إلى ظاهر الصلاة وللصلاة روح وواقع وهو يتمثَّل فى الذِكر وهو أكبر من سائر الجوانب الإيجابيَّة فيها.

والذكر لا بد وأن يصل إلى مستوى بحيث يتولَّى على جميع حركات الإنسان وسكناته ويسيطر على كافة تصرفاته لا فى حال أداء الصلاة فحسب بل فى جميع الحالات قال تعالى: (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض و ابتغوا من فضل الله و اذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون)(۴) وقال تعالى: (فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا)(۵).. وقال تعالى: (واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين)(۶) ولا يُجدى الذكر القليل المتقطع بل لا بدَّ وأن يكون كثيراً دائماً (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا).(۷)

هذا و قد بلغت أهمية الذكر عند هبوط بنى آدم إلى مستوى بحيث لا يمكن العيش فى الدنيا إلا به و مع الإعراض عنه سوف يبتلى الإنسان بضنك العيشِ وعمى البصيرة (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى).(۸)

والجدير بالذكر أنَّ هذه الآية وردت بعد آيات الهبوط و قد مرَّ الحديث عنها فراجع، وفى قبال هذه المعيشة هى الحالة المعنوية التّى يشير إليها سبحانه بقوله (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب).(۹)

الذكر من أهمّ أدوار الأنبياء؟

مادام قد أثبتنا أنَّ الشريعة ليس هى إلّا انعكاساً لِما حدث عند خلق آدم وحواء فعلى ضوء ذلك ينبغى لنا أن نفسِّرها فالأنبياء لم يأتوا بالشريعة من قِبَل الله سبحانه إلاّ للتذكير ولإرجاع الهابطين إلى تلك الجنَّة التّى كان يعيش فيها آدم عليه السلام وهو فى جوار ربِّه فليس للأنبياء دورٌ رئيسىٌ غير ذلك وهو نفس السرّ الذى من أجله خلق الإنسان وشرِّعت الشريعة كما مرَّ ذلك.

ذكر أهل البيت هو ذكر الله

من هنا نعرف أهمية ذكر من هم وجه الله الذين بهم يُعرف الله ويُعبد، فمع ذكرهم يتمكن الإنسان أن يذكر الله بل ذكرهم يساوى ذكر الله كيف وهم الذين قال الله فيهم (فى بيوت أذن الله أن ترفع و يذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو و الآصال رجال لا تلهيهم

تجاره و لا بيع عن ذكر الله)(۱۰) حيث أنَّهم عليهم السلام هم أهل الذكر وقال تعالى: (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون).(۱۱)

(الكافى الحسين بن محمد عن المعلى عن الوشاء عن عبد الله بن عجلان عن أبى جعفر عليه السلام فى قول الله عز و جل فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم الذكر أنا والأئمة عليهم السلام أهل الذكر).(۱۲)

وهم تلك النعمة التى يشير إليها سبحانه فى قوله (واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور)(۱۳) والظاهر أنَّ الميثاق هو الأمانة المعروضة على السموات والأرض والجبال تلك الأمانة التّى حملها الإنسان وقد مرَّ الحديث عنه فراجع.

وعلى ضوئه كلُّ من يذكر الله عزَّ وجلَّ فهو ذاكرٌ لهم لا محالةَ وإلا فهو ليس بذاكرٍ للّه، و قد ورد فى الزيارة الجامعة (ذكركم فى الذاكرين).(۱۴)

فكل ذاكر لله يذكرهم لا- محالة حيث أنهم مظهر مشيئته تعالى. و قد ورد فى الكافى (عن العدة عن البرقى عن أبيه عن فضالة بن أيوب عن على ابن أبى حمزة قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول شيعتنا الرحماء بينهم الذين إذا خلوا ذكروا الله انا إذا ذكرنا ذكر الله وإذا ذكر عدونا ذكر الشيطان).(۱۵)

وقال الفرزدق فى قصيدته الميميَّة: (مقدَّمٌ بعد ذكر الله ذكرُهُم ... فى كلِّ فرض ومختوم به الكلم إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم ... أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم).

ذكرهم أجر الرسالة

ولا يخفى أن أجر الرسالة ينحصر فى المودة فى القربى لقوله تعالى (قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودَّة فى القربى)(۱۶) والمودَّة هى السبيل إلى الربِّ (قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا)(۱۷) وليس هو إلّا الذكر (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين)(۱۸) (وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين).(۱۹)

أهمية إحياء ذكرهم عليهم السلام

ومن هنا نصل إلى سر التأكيد البالغ على ذكرهم عليهم السلام و أن من ذكرهم أو ذكروا عنده فخرج من عينه ماء و لو مثل جناح البعوضة بنى الله له بيتا فى الجنة و قد ورد فى الحديث:

(ما المفيد عن ابن قولوية عن القاسم بن محمد عن على بن إبراهيم عن أبيه عن جده عن عبد الله بن حماد الأنصارى عن جميل بن دراج عن معتب مولى أبى عبد الله عليه السلام قال سمعته يقول لداود بن سرحان يا داود ابلغ موالى عنى السلام و إنى أقول رحم الله عبدا اجتمع مع آخر فتذاكر امرنا فان ثالثهما ملك يستغفر لهما و ما اجتمع اثنان على ذكرنا إلا باهى الله تعالى بهما الملائكة فإذا اجتمعتم فاشتغلوا بالذكر فان فى اجتماعكم و مذاكرتكم أحياؤنا و خير الناس من بعدنا من ذاكر بأمرنا و دعا إلى ذكرنا).

وأنت ترى بأنَّ الإمام عليه السلام يطلق الكلمة (الذكر) من غير تقييد حيث يقول (فاشتغلوا بالذكر) ومع ذلك يُطبِّقه على ذكرهم عليهم السلام وهذا دليل على عدم انفصال ذكرهم عن ذكر الله تعالى.

ولا يخفى أنَّ ذكرهم عليهم السلام لا يعنى الحديث عن سيرتهم من تاريخ ولادتهم وشهادتهم وبيان مناقبهم فحسب، بل الأحاديث تؤكِّد على ذكر أمرهم والأمر له الأهمية القصوى كما سنشرح عنه فيما بعد بالتفصيل ومن هذا المنطلق يطلق عليهم أولوا الأمر ويعبَّر عن بقيَّة الله الحجة بن الحسن عليه السلام ولى الأمر وإمام الأمر.

فذكرُهم عليهم السلام يعنى ذكر ما سيتحقق من أمرهم ودولتهم تلك الدولة المرتقبة و هى دولة المهدى المنتظر عجل الله تعالى

فرجه الشريف.

وقد ورد فى تفسير قوله تعالى وذكرهم بأيام الله (العطار عن سعد عن ابن يزيد عن محمد بن الحسن الميثمى عن مثنى الحناط قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول أيام الله ثلاثة يوم يقوم القائم ويوم الكره ويوم القيامة).(۲۰)

وأيضاً قد ورد فى زيارة الجامعة الكبيرة (ويردَّكم فى أيّامه) وهى أيّام الله.

والحاصل: أن فلسفة جميع العبادات تكمن فى أمرٍ واحدٍ و هوا لذِكر البنَّاء الذى يجعل الإنسان منتظراً لأيّام الله و مشتاقاً إليها ومتوقِّعاً حصولها والعيش فى ظلِّها ومن ثمَّ رفض كلِّ ما يُشغله عن الذكر، ولا يصح إطلاق كلمة الذكر إلاّ مع فقد تلك الحالة المعنوية التّى لا بدَّ للإنسان من إرجاعها فى ذاكرته إلى أن يأتى ذلك اليوم الذى يرجع الكل فيه إلى الله تعالى (إنّا لله وإنّا إليه راجعون) وذلك حينما يعيش الإنسان مرَّةً أخرى فى جنته التّى أُخرج منها وقال علىٌّ عليه السلام بشأن تلك الجنّة (ثم اسكن سبحانه آدم داراً أرغد فيها عيشه وآمن فيها محلته وحذَّره إبليس وعداوته، فاغتره عدوُّه نفاسةً عليه بدار المُقام ومرافقةِ الأبرار فباع اليقين بشكه والعزيمةَ بوهنه واستبدل بالجدل وجلاً وبالاغترار ندما ثم بسط الله سبحانه له فى توبته ولقّاه كلمة رحمتِه ووعده المردَّ إلى جنتِه فأهبطه إلى دار البليةِ وتناسل الذرِّية).(۲۱)

الفصل التاسع: يوم الوقت المعلوم

فمتى هو ذلك اليوم؟

الأحاديث فى هذا المجال كثيرة وكلُّها تؤكِّد الآية المباركة على أنَّ ذلك اليوم هو قبل يوم القيامة واليوم هو يوم قيام قائم آل محمَّد الحجَّة بن الحسن المهدى عجَّل الله تعالى فرجه الشريف فهناك حديث صريح فى ذلك نقلَّه المجلسى وكثير من العلماء(موسوعة المهدى).

(روى السيد على بن عبد الحميد فى كتاب الأنوار المضيئة بإسناده إلى احمد بن محمد الأيادى يرفعه إلى إسحاق بن عمار قال سألته عن إنظار الله تعالى إبليس وقتا معلوما ذكره فى كتابه فقال فانك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم قال الوقت المعلوم يوم قيام القائم فإذا بعثه الله كان فى مسجد الكوفة وجاء إبليس حتى يجثو على ركبتيه فيقول يا ويلاه من هذا اليوم فيأخذ بناصيته فيضرب عنقه فذلك يوم الوقت المعلوم منتهى اجله).(۲۲)

ونفس الحديث بتفصيل أوسع قد نقله وهب بن جميع مولى إسحاق: (ومنه عن وهب بن جميع مولى إسحاق بن عمار قال سالت أبا عبد الله عليه السلام عن قول إبليس رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم قال له وهب جعلت فداك أى يوم هو قال يا وهب أ تحسب انه يوم يبعث الله فيه الناس إن الله أنظره إلى يوم يبعث فيه قائمنا فإذا بعث الله قائمنا كان فى مسجد الكوفة وجاء إبليس حتى يجثو بين يديه على ركبته فيقول يا ويله من هذا اليوم فيأخذ بناصية فيضرب عنقه فذلك يوم الوقت المعلوم).(۲۳)

نعم هناك أحاديث أخرى تتحدَّث عن خصوص قاتل إبليس أنَّه رسول الله صلى الله عليه وآله أو أمير المؤمنين عليه السلام فراجع.(۲۴)

والجدير بالذكر ما نقله العلامَّة المجلسى رحمه الله عن السيِّد بن طاووس رضوان الله تعالى عليه حول يوم الوقت المعلوم وهو حديثٌ طويل نذكر قسماً منه كشاهد لما نحن بصدد إثباته: (قال السيد بن طاووس فى سعد السعود رأيت فى صحف إدريس على نبينا وآله وعليه السلام فى ذكر سؤال إبليس وجواب الله له قال رب فانظرى إلى يوم يبعثون قال لا ولكنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم فإنَّه يوم قضيت و حتمت أن اطهر الأرض ذلك اليوم من الكفر و الشرك و المعاصى و انتخب لذلك الوقت عباداً لى امتحنت قلوبَهم

للإيمان وحشوتها بالورع والإخلاص واليقين والتقوى والخشوع والصدق والحلم والصبر والوقار والزهد فى الدنيا والرغبة فيما عندى يدينون بالحق وبه يعدلون أولئك أوليائى حقاً اخترت لهم نبيا مصطفى و أميناً مرتضى فجعلته لهم نبيا ورسولا وجعلتهم له أولياء وأنصارا تلك أمة اخترتها للنبى المصطفى وأمينى المرتضى ذلك وقت حجبته فى علم غيبى ولا بد انه واقع أبيدك يومئذ وخيلك ورجلك وجنودك أجمعين فاذهب فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم..).(۲۵)

واللطيف أنَّه تعالى بعد أن ذكر قضيَّة خلق آدم وسجود الملائكة له وإباء إبليس عن السجود ثمَّ طرده من رحمة الله قال: (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين إن هو إلا ذكر للعالمين ولتعلمن نبأه بعد حين).(۲۶)

وفى تفسير هذه الآية الكريمة ورد حديث فى الكافى إليك نصُّه: (عن أبى جعفر عليه السلام فى قوله عز و جل قل ما أسألكم عليه من اجر و ما أنا من المتكلفين إن هو إلا ذكر للعالمين قال هو أمير المؤمنين عليه السلام ولتعلمن نباه بعد حين قال عند خروج القائم عليه السلام).(۲۷)

الأجل المُسمَّى

قال تعالى: (وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله فانتظروا إنى معكم من المنتظرين).(۲۸)

وهذه الآية تضاهى الآية ۲۱۳ من سورة البقرة حيث قال تعالى: (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم).(۲۹)

فهناك نوعان من الاختلاف:

۱- من حيث المعاش وهو الذى يتعلق بعالم الدنيا وعالم الكثرة فالله قد رفع هذا الاختلاف من خلال الدين والشريعة.

۲- الاختلاف فى نفس الدين وما تضمنه الكتاب الإلهى من المعارف الحقَّة.. هذا يرجع إلى البغى بين علماء الأديان و لا ينبغى أن يحدث مثل هذا الإختلاف.

فبالنسبة إلى هذا النوع من الاختلاف يقول تعالى: (وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم و لولا كلمة سبقت من ربك إلى اجل مسمى لقضى بينهم..).(۳۰)

والمفروض أن يحكم الله بينهم بإظهار الحق على الباطل و هلاك المبطلين و إنجاء المحقين لكن الكلمة التّى سبقت منه تعالى هى التّى منعت من القضاء بينهم.

فما هى تلك الكلمة؟

والكلمة هى قوله تعالى: لما أهبط الإنسان إلى الدنيا (ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين) (يحيى بن عبد الله بن الحسن عن الصادق عليه السلام فى قوله تعالى و لقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون قال نحن هم).(۳۱)

النتيجة

دولة الإمام المهدى عجَّل الله تعالى فرجه هى جنَّة آدم عليه السلام

من خلال ما بيَّنا نستنتج الأمور التالية:

۱- إن الله سبحانه إنّما خلق آدم عليه السلام و أمر الملائكة جميعاً أن يسجدوا له، فلأجل أن يخرجَ من صلبه نور محمَّدٍ وأهلِ بيته عليه وعليهم الصلاة السلام و لذلك ورد فى الحديث القدسى لولاك لما خلقت الأفلاك.

۲- إنَّ الله أسكن آدم و حواء جنته وهى فى الأرض حيث كانت تخيم عليها النورانيـة والمعنوية، و أراد منهما أن يبقيا فيها فيأكلا منها حيث شاءا رغداً و لا يقربا الشجرة فيكونا من الظالمين.

۳- إنَّ إبليس لأنَّه عصى أمر الله أطرده سبحانه من جوار رحمته فأخـذ يوسوس فى آدم و زوجته و أراد منهما أن يقربا تلك الشـجرة فقربا فبدأت لهما سوآتهما و زالت عنهما تلك النورانية التى كانا فيها و ابتلى آدم وذريته بالحياة المادية الخشـنة حيث هبط من الجنَّة، و هبوط الإنسان من الجنَّة لا يعنى إلاّ زوال تلك النورانيَّة التى كان يمتلكها عندما كان يعيش بجوار ربِّه.

۴- من أجل سدِّ الثغور التى حدثت جرّاء خروج آدم من الجنَّة شرع الله سبحانه التكاليف الكثيرة و الأحكام المتنوِّعة.

۵- إنَّ الغاية المنشودة من إرسال الرسل و إنزال الكتب هى رجوع بنى آدم مرَّةً أخرى إلى جنَّته.

۶- نجح موسى عليه السلام مرَّة أخرى حيث أرجع بنى إسرائيل إلى تلك الجنَّة فكانوا يتظللون بالغمام و تنزل عليهم المن والسلوى ولكنَّهم طمعوا فى البقل و القثاء وغيرها من متاع الدنيا فاهبطوا مصراً و رجعوا فيما كانوا عليه من الظلمة.

۷- استمرَّ الهبوط إلى أن بعث الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلَّم فتمكَّن صلوات الله عليه من إرجاع الناس إلى جنَّة آدم إلاّ أنَّ السقيفة أفشلت جميع ذلك فاستمرَّت حالة الهبوط إلى يومنا هذا.

۸- إنَّ العيش فى الدنيا كمتاع ليس هو إلاّ إلى حين و الحين إنّما هو مقطعٌ من الدهر داخلٌ فيه لا خارج عنه.

۹- الدهر يتعلَّق بعالم ما قبل قيام القيامَّة ذلك العالم المشتمل على الزمان والمكان الذين هما من عوارض الجسم و الجسمانى.

۱۰- إنَّ صلاحية الحاجات التِّى نفتقر إليها فى حياتنا الدنيويَّة إنَّما هى إلى ذلك الحين فقط.

۱۱- أنَّ أكثر المعاصى ناشئة من وساوس الشيطان فمع هلاكه لا يبتلى عامَّة الناس بالمعصية.

۱۲- قوام الدنيا بالدناءة و الرذيلة والمعصية فمع قمع جذورها فلا دنيا و إن كانت هناك أرضٌ وسماءٌ.

۱۳- إنَّ تواجد الإنسان بعد ذلك على الأرض واستقراره عليها لا يعنى أنَّه يعيش الحياة الدنيا.

۱۴- الحلُّ الوحيـد للرجوع إلى الله و العيش فى جواره فى ظل رحمته الواسعة هو ذكر الله و ذكر رحمته التى كان الإنسان يتنعَّم بها و الذكر هو الغاية النظرية لجميع العبادات.

۱۵- إنَّ الذكر هو العامل الرئيسى للرغبة فى ما افتقده الإنسان من النورانيَّة التى كان يعيشها فى الجنَّة ۱۵-إنَّ الله وعد آدم أن يردَّه إلى جنته كما قال على عليه السلام: (ثم بسط الله سبحانه له فى توبته و لقّاه كلمة رحمته ووعده المرد إلى جنته).(۳۲)

۱۶-إنَّ إبليس لا يبقى حيّاً إلاّ إلى يوم الوقت المعلوم وحينئذٍ سوف يقتل.

۱۷-إنَّ يوم الوقت المعلوم هو يوم ظهور الحجَّة عليه السلام.

وخلاصة القول أنَّ الله سوف لا بدَّ و أن يُحيى الأرض بعد موتها إحياءً بالمعنى التام للكلمة، وفى الحديث (عن أبى جعفر عليه السلام فى قوله عز وجل اعلموا إنَّ الله يحيى الأرض بعد موتها يعنى بموتها كفرَ أهلِها و الكافرُ ميِّتٌ فيُحييها اللهُ بالقائم فيَعدلُ فيها فتحيى الأرض ويحيى أهلها بعد موتهم).(۳۳)

و قد وعد الله تعالى عباده بأنَّهم (لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً)(۳۴) وأيضاً قال (ولو انهم أقاموا التوراة والإنجيل وما انزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم و من تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة و كثير منهم ساء ما يعملون)(۳۵)

[الفصل العاشر] بعض صفات دولة المهدى عليه السلام:

[تمهيد]

ومع التأمّل فى الأحاديث التِّى وردت فى توصيف دولة الإمام المهدى عليه السلام نلاحظ أنَّ مواصفات تلك الدولة المباركة لا

تتلاءم مع الدنيا التى نعيش فيها بل تنسجم تماماً مع الجنَّة التّى كان يعيش فيها آدم عليه السلام، فنشير إلى بعض تلك المواصفات:

وصول الإنسان إلى كماله المعنوى

وفى هذا المجال قد وردت أحاديث كثيرة نكتفى ببعضها ففى الكافى بإسناده عن (أبى جعفر الباقر عليه السلام قال إذا قام قائمُنا وضع يده على رؤوس العباد فجمع بها عقولَهم و كمُلت بها أحلامُهم).(۳۶)

ولا ـ يخفى أنَّ وضع اليد على رؤوس العباد كناية عن النظر إليهم نظرة رحيمة بها تفيض النورانيَّة والمعنوية منه عليه السلام عليهم و ذلك بعد وصولهم إلى مستوى العبودية التى بها يتمكَّنون من قبول تلك الفيوضات الإلهيَّة، كما أنَّ اجتماع عقولهم يعنى وصولهم إلى مرتبة رفيعة من الحذاقة و الحكمة بحيث يمكنهم تحمُّل ذلك الأمر كما سيأتى فى بيان قولهم عليهم السلام أنَّ أمرنا صعب مستصعب لا يحتمله إلّا مَلَكٌ مقرَّب أو نبىٌّ مُرسَلٌ أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان وفى بعضها أو مدينه حصينة وعندما يسأل الراوى عن المدينة الحصينة يجيبه الإمام الصادق عليه السلام بأنَّها القلب المجتمع وهذه الصفة التى يتصف بها أصحاب الحجَّة عليه السلام ليست من الصفات التى يتمكَّن الإنسان و هو فى عالم الطبيعة وسجن الدنيا أن يكتسبها بل هى صفةٌ نورانيَّة و حالةٌ معنويَّة لا يصل إليها إلاّ ـ من هاجر عالم الطبيعة و انتقل إلى عالم المعنى فرجع إلى الله تعالى، وهذا لا ينافى كونه على وجه الأرض لأنَّ عالم المُلك لا يتحكَّم فى مثل هذا الإنسان كمّا مرَّ تفصيله.

مشاهدة المؤمنين بعضهم بعضاً:

وفى هذا المجال أيضاً وردت أحاديث كثيرة منها ما ورد فى الكافى (عن أبى الربيع الشامى قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول إنَّ قائمنا إذا قام مد الله عز وجل لشيعتنا فى أسماعهم و أبصارهم حتى لا يكون بينهم وبين القائم بريد يكلمهم فيسمعون وينظرون إليه وهو فى مكانه).(۳۷)

والمستفاد من هذا الحديث أنَّ القدرة التّى تُكتسب آن ذاك ليست هى قدرةٌ ماديَّة يصل إليها الإنسان من منطلق العلم والتكنولوجيا كما يتصوَّر من ليس له إلمام بواقع الشريعة المقدَّسة و يحاول أن يفسِّرَ كلَّ شئ من منظاره المادِّى الضيِّق فيفسِّر مثل هذه الأحاديث بانتشار أجهزة التلفزيون والإنترنت وماشابه ذلك!! بل الأمر فوق مستوى هذه التخيُّلات الباطلة الزائفة إنَّها قدرةٌ إلهيَّة وقوَّةٌ ربّانية تابعة من مبدأ الكون بنحو مباشر ذلك الذى إذا أراد شيئاً يقول له كنْ فيكون ولذلك نلاحظ اختصاصها بخصوص الشيعة كما ورد فى الحديث لشيعتنا فهم الذين يهمُّهم هذا الأمر فيتميَّزون بهذه الصفات حيث يسمعونه عليه السلام و ينظرون إليه و هو فى مكانه من غير بريدٍ ولا ـ يفرق ذلك بين ما إذا كانوا يعيشون فى حياةً مدنيَّةً يمتلكون تلك الأجهزة أو كانوا من أهل القرى والبوادى لم يحضوا من الكهرباء فضلاً عن الأجهزة الكهربائيَّة، فالسبب لوصولهم إلى ذلك المستوى فى السمع والبصر ليس هو إلّا كونهم موالين لذلك الإمام روحى له الفداء والسائرين على نهجه القويم.

وأمّا غير الشيعة فلا يصلوا إلى ذلك المقام مهما ارتفعت مستواهم المادى وكثرت إمكانيّاتهم الظاهريَّة، فإذاً هذه الحالة المميَّزة هى حالةٌ معنوية بحتة لا دخل للمادة وعوارضها فى ذلك أصلاً ولم يحدث هذا الأمر إلّا لأنَّ العالم الذى يعيشه المؤمن آن ذاك هو أعلى مستوى من عالم الدنيا الذى هبط فيه آدم وبنوه بل هو جنَّة آدم عليه السلام التى بعث جميع الأنبياء لأجل إرجاع الناس إليها.

وفى حديث آخر عن ابن مسكان قال (سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول إنَّ المؤمن فى زمان القائم وهو بالمشرق ليرى أخاه الذى فى المغرب وكذا الذى فى المغرب يرى أخاه الذى فى المشرق).(۳۸)

و هذا الحديث أيضاً يؤكِّد أنَّ الذى سوف يكتسب تلك المواصفات إنّما هو المؤمن لا غيره من الناس و ذلك فى خصوص زمان القائم عليه السلام فهو يرى أخاه فهذه الرؤية إنّما هى رؤية معنوية نابعة من إيمانه من ناحية وبلوغه ذلك الزمان من ناحيةٍ أخرى.

ثمَّ إنَّ الأـخوَّة فى ذلك الزمان ليس هى الأخوَّة النسبيَّة الناشـئة من الولادة بل هل نوع خاص من الأخوَّة أشار إليها الإمام الصادق عليه السـلام فى قوله (إنَّ الله تبارك وتعالى آخى بين الأرواح فى الأظلَّة قبل أن يخلق الأجساد بألفى عام فلو قد قام قائمنا أهلِ البيت ورث الأخ الذى آخى بينهما فى الأظلة و لم يورث الأخ فى الولادة).(۳۹)

أقول: إنَّ عالم الأظلة هو عالم ما قبل انتقال الروح إلى الجسد وهو ذلك الحين الذى كان الإنسان شـيئاً غير مذكور وغير معروف وهو العالم الـذى يطلق عليه العرفاء بعالم ألست إشارة إلى قوله تعالى (ألست بربكم قالوا بلى)(۴۰) تفصيل الحديث عن ذلك العالم يُطلب فى محلِّه.

و فى حديث أبى بصـير قد ذكر الإمام عليه السـلام سرَّ ما قد مرَّ فقال أبو بصير (قال أبو عبد الله عليه انه إذا تناهت الأمور إلى صاحب هـذا الأـمر رفع الله تبـارك وتعـالى له كـل منخفض من الأرض وخفض له كل مرتفع حتى تكون الـدنيا عنـده بمنزلـة راحته فأيُّكم لو كانت فى راحته شعرةٌ لم يُبصرها).(۴۱)

فمع التـأمُّل فى هـذا الحـديث نعرفُ نقاطـاً كثيرة نشـير إلى بعضـها، فقوله إذا تناهت الأمور يـدلُّ على أنَّ فى بدايـة ظهوره ليس الأمر كذلك وبذلك يمكن تفسـير الأحاديث التى ربَّما يُستشمُّ منها خلاف ما نحن بصدد إثباته فهى إنَّما تشير إلى ما قبل أن تستقرَّ الأمور ويُظهر الله الدين على الدين كلِّه، وأمّا بعد ذلك فالحالة تنعكس تماماً فيرجع المجتمع الإيمانى بأكمله إلى الله سبحانه وتعالى.

ثمَّ لا تخفى عليك لطافة المناسبة بين قوله عليه السلام إذا تناهت الأمور وبين قوله إلى صاحب هذا الأمر وأمّا قوله عليه السلام رفع الله يـدلُّ على أنَّ ذلـك أمرٌ إلهى لاـ تحكمه السـنن المـاديَّة مضافـاً إلى كلمـة له فى قوله عليه السـلام رفع الله تبارك وتعالى له.. وأيضـاً خفض له، فهى تشـير إلى أنَّ ذلك يختص به عليه السـلام فهو الذى يرى الأرض هكذا، وألطف من ذلك كلِّه قوله عليه السـلام حتى تكون الـدنيا عنـده فالـدنيا خاصَّة لا الأرض تكون عنـده وقـدَّ مرَّ تفصـيل الفرق بين الـدنيا والأرض، كما أنَّ الـدنيا لا تكون عند غيره كـذلك والحاصـل أنَّ هـذا الحـديث أيضـاً يؤكِّد على مـا أثبتنـاه من أنَّ دولـة المهـدى و إن كـانت فى الـدنيا إلاّ أنَّ الظواهر المُلكيَّة الدنيويَّة لا تأثير لها فى حكومته عليه السلام.

التوسعة الزمانيَّة

ففى رواية أبى بصير عن أبى جعفر عليه السلام أنَّه (يمكث على ذلك سبع سنين مقدار كل سنه عشر سنين من سنيكم هذه)(۴۲) وفى حديث آخر عن الصادق عليه السلام (يكون سبعين سنة من سنيكم هذه).(۴۳)

أقول: اختلاف السـنة عن سـنين الـدنيا يـدلُّ أ نَّ دولته ليست دولة دنيوية و إن كانت هى على الأرض بل المخيِّمُ على تلك الدولة هو نورٌ إلهىٌّ والمتسـلِّطُ على تلك الحكومة معنويَّةٌ ربّانيَّةٌ خارجة عن أطر الزمان والمكان، فمن الواضح حينئذٍ أن تكون سـنتها عشر سنين أو سبعين سنة.

ظهور الملائكة والجن للناس

وفى الحـديث الطويل الـذى ينقله المفضل بن عمر قال: (يا سـيدى وتظهر الملائكةُ والجنُّ للناس؟ قال إى والله يا مفضَّل و يخاطبُونهم كما يكون الرجل مع حاشيته و أهله، قلت يا سيِّدى و يسيرون معه؟ قال إى والله يا مفضَّل).(۴۴)

ومن المعلوم أنَّه ليس من شأن الملائكـة و الجن أن يظهروا للناس كافَّة بما أنَّهم فى الـدنيا يعيشون فى هذا العالم المادى لأنَّ الملائكة خُلقوا من نور لاـ علاقـة لهم إلاّـ مع من يمتلك النور المعنوى و أيضاً ليس من طبيعـة الجن الانسـجام مع عامَّة الناس كما هو ثابت فى محلِّه.

فإذاً دولة الإمام عليه السلام ليست ضمن الدنيا بل كما أثبتنا هى دولةٌ تحيطها حالةٌ خاصَّة نورانيَّة خارجة عن إطار المادَّة والماديّات.

ذهاب العاهة و تقوية القلوب

نقل الشيخ الصدوق فى كتابه الخصال: (عن ابن الوليد عن الصفار عن الحسن بن على بن عبد الله بن المغيرة عن العباس بن عامر عن ربيع بن محمد عن الحسن بن ثوير بن أبى فاختة عن أبيه عن على بن الحسين عليه السلام قال إذا قام قائمنا أذهب الله عز و جل عن شيعتنا العاهة و جعل قلوبهم كزبُر الحديد و جعل قوه الرجل منهم قوة أربعين رجلا و يكونون حكّام الأرض و سنامها).(۴۵)

والملاحظ فى هذا الحديث نفس ما كان فى الأحاديث السابقة حيث نسب الإمام عليه السلام ذهاب العاهة إلى الله مباشرةً فقال أذهب الله عز و جل فهو أمرٌ إلهى غير خاضع للقوانين الطبيعيَّة ومن هنا اختصَّت بالشيعة فحسب عن شيعتنا وأمّا كلمة جَعَل الوارد فى الحديث فالظاهر أنَّ المراد منه هو الجعل التكوينى لا الجعل التشريعى، وبما أنَّهم وصلوا إلى هذا المرتبة السامية صاروا حكّاماً على الأرض.

ومثل هذا الحديث هو ما ورد فى شأن لوط عليه السلام عن (ابن مسرور عن ابن عامر عن عمه عن ابن ابى عمير عن على بن أبى حمزة عن أبى بصير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام ما كان يقول لوط عليه السلام (لو أنَّ لى بكم قوة أو آوى إلى ركنٍ شديدٍ)(۴۶) إلّا تمنِّياً لقوة القائم عليه السلام و لا ذَكَر إلا شدة أصحابه فإنَّ الرجل منهم يُعطى قوة أربعين رجلًا و أنَّ قلبَه لأشدَّ من زبر الحديد و لو مروا بجبال الحديد لقطعوها لا يكفون سيوفهم حتى يرضى الله عز وجل).(۴۷)

وقد مرَّ أنَّ أهل البيت عليهم السلام بما فيهم المهدى من ولد فاطمة عليهما السلام كانوا معروفين لدى كافة الأنبياء وكذلك دولته المباركة كانت معروفة لديهم. و أمّا الذى يعطيهم هذه القوَّة فهو الله سبحانه بحيث لو مرُّوا بجبال الحديد لقطَّعوها ومن هنا نستنتج بأنَّ الأربعين المذكورة فى الحديث إنَّما هى إشارة إلى القوَّة الخارقة للعادة فحسب فهى خارجة عن إطار الجسمانيّات بل هى قوَّة روحانيَّة ملكوتيَّة و ليس الكلام فيه مبالغة أصلًا.

نزول البركات و التآلف بين الحيوانات

وفى هذا المجال وردت أحاديث كثيرة نذكر ثلاثةً منها فقد ورد فى حديث (تعطى السماء قطرها والشجر ثمرها والأرض نباتها وتتزين لأهلها وتأمن الوحوش حتى ترتعى فى طرق الأرض كأنعامهم)(۴۸) وفى حديث آخر (عن زيد بن وهب الجهنى عن حسن بن على بن أبى طالب عن أبيه صلوات الله عليهما قال يبعث الله رجلا- فى آخر الزمان..إلى أن قال.. تصطلح فى ملكه السباع و تخرج الأرض نبتها و تنزل السماء بركتها و تظهر له الكنوز يملك ما بين الخافقين أربعين عاماً فطوبى لمن أدرك أيامه و سمع كلامه)(۴۹) وقال أمير المؤمنين علىٍّ عليه السلام (ولو قد قام قائمنا لأنزلت السماء قطرها ولأخرجت الأرض نباتها و لذهبت الشحناء من قلوب العباد واصطلحت السباع و البهائم حتى تمشى المرأة بين العراق إلى الشام لا تضع قدميها إلّا على النبات و على رأسها زبيلها لا يهيجها سبع و لا تخافه).(۵۰)

وأنت تلاحظ فى هذه الأحاديث خاصَّة الأخير كيف يسود الأمن تلك الدولة المباركة و أيضاً هناك ترابط وانسجام بين الجانب الروحى المعنوى فى أصحابه عليه السلام حيث تذهب الشحناء من قلوبهم وبين الجانب المادى من نزول البركات و شمولية الخيرات، فكلُّ المشاكل والآفات التّى نعيشها نحن منشأها ومنبتها هو الدنيا لا غير قال علىٌّ عليه السلام فى خطبته المعروفة فى توصيف الدنيا (دار بالبلاء محفوفة وبالغدر معروفة لا تدوم أحوالها ولا يسلم نزالها أحوالٌ مختلفة وتاراتٌ متصرِّفة، العيشُ فيها مذمومٌ والأمان منها معدوم و إنَّما أهلُها فيها أغراض مستهدفة ترميهم بسهامها و تفنيهم بحمامها)(۵۱) فمع التخلُّص من الدنيا و الرجوع إلى الجنَّة فى الأرض نتخلَّص من جميع ألوان العاهات والآفات والخوف والوحشة.

الهوامش

---

(۱) المنافقون ۹. (۲) طه ۱۵. (۳) العنكبوت ۴۵. (۴) الجمعة ۱۱. (۵) النساء ۱۰۴. (۶) الأعراف ۲۰۶. (۷) الأحزاب ۴۲. (۸) طه ۱۲۵. (۹) الرعد ۲۸. (۱۰) النور ۳۷. (۱۱) النحل ۴۴. (۱۲) بحار الأنوار ج ۱۶ ص ۳۵۹ روایة ۵۵ باب ۱۱. (۱۳) المائدة ۸. (۱۴) بحار الأنوار ج ۱۰۲ ص ۱۲۹ روایة ۴ باب ۸. (۱۵) بحار الأنوار ج ۷۴ ص ۲۵۸ روایة ۵۵ باب ۱۵. (۱۶) الشوری ۲۴. (۱۷) الفرقان۵۷. (۱۸) الأنعام ۹۰. (۱۹) یوسف۱۰۴. (۲۰) بحار الأنوار ج۵۱ ص۵۰ روایة۲۳ باب۵. (۲۱) بحار الأنوار ج ۱۱ ص ۱۲۲ روایة ۵۶ باب ۱. (۲۲) بحار الأنوار ج۵۲ ص۳۷۶ روایة۱۷۸ باب۲۷. (۲۳) بحار الأنوار ج ۶۳ ص ۲۵۴ روایة ۱۱۹ باب ۳. (۲۴) بحار الأنوار ج ۱۱ ص ۱۵۴ روایة ۳۱ باب ۲، بحار الأنوار ج ۵۲ ص ۳۷۶ روایة ۱۷۸ باب ۲۷. (۲۵) بحار الأنوار ج ۱۱ ص ۱۵۱ روایة ۲۶ باب ۲. (۲۶) ص۸۶-۸۸. (۲۷) الکافی ج ۸ ص ۲۸۷ روایة ۴۳۲ باب ۸. (۲۸) یونس ۲۰. (۲۹) البقرة ۲۱۳. (۳۰) الشوری ۱۴. (۳۱) بحار الأنوار ج ۲۴ ص ۱۸۲ روایة ۱۸ باب ۵۰. (۳۲) بحار الأنوار ج ۱۱ ص ۱۲۲ روایة ۵۶ باب ۱. (۳۳) بحار الأنوار ج ۲۴ ص ۳۲۵ روایة ۳۹ باب ۶۷. (۳۴) الجن ۱۶. (۳۵) المائدة ۶۶. (۳۶) الکافی ج۱ ص ۲۵ روایة ۲۱. (۳۷) الکافی ج ۸ ص ۲۴۰ روایة ۲۳۹ باب ۸. (۳۸) بحار الأنوار ج ۵۲ ص ۳۹۱ روایة ۲۱۳ باب ۲۷. (۳۹) الفقیه ج۴ ص۳۵۲ روایة۵۷۶۱ باب۲. (۴۰) الأعراف ۱۷۲. (۴۱) بحار الأنوار ج ۵۲ ص ۳۲۸ روایة ۴۶ باب ۲۷. (۴۲) بحار الأنوار ج ۵۲ ص ۳۳۹ روایة ۸۴ باب ۲۷. (۴۳) بحار الأنوار ج ۵۲ ص ۲۹۱ روایة ۳۵ باب ۲۶. (۴۴) بحار الأنوار ج ۵۳ ص ۶ روایة ۱ باب ۲۸. (۴۵) بحار الأنوار ج ۵۲ ص ۳۱۶ روایة ۱۲ باب ۲۷. (۴۶) هود ۸۰. (۴۷) بحار الأنوار ج ۵۲ ص ۳۲۷ روایة ۴۴ باب ۲۷. (۴۸) بحار الأنوار ج ۵۳ ص ۸۱ روایة ۸۶ باب ۲۹. (۴۹) بحار الأنوار ج ۵۲ ص ۲۸۰ الروایة۶ باب ۲۶. (۵۰) بحار الأنوار ج ۵۲ ص ۳۱۶ روایة ۱۱ باب ۲۷. (۵۱) بحار الأنوار ج ۷۳ ص ۸۲ روایة ۴۵ باب ۱۲۲.

المعجزات و الکرامات

کلُّ ما ذکرنا من خصوصیّات حکومة الإمام المهدی روحی لتراب مقدمه الفداء یکمن فی أمرٍ واحد وهو أنَّه مؤیَّد من قبل الله بالمعجزات والکرامات فدولته دولة الباطن لا الظاهر ولهذا نشاهد أنَّ لحجر موسی علی نبیِّنا وآله وعلیه السلام دورٌ مهمٌّ فی طعام وشراب أصحاب الإمام المهدی عجَّل الله تعالی فرجه الشریف ففی الحدیث المنقول من الخرائج (روی عن أبی سعید الخراسانی عن جعفر بن محمد عن أبیه علیهما السلام قال: إذا قام القائم بمکَّة و أراد أن یتوجه إلی الکوفة نادی مناديه ألا لا یحمل أحدٌ منکم طعاماً ولا شراباً ویحمل حجر موسی الذی انبجست منه اثنتی عشرة عینا فلا ینزل منزلا إلا نصبه فانبجست منه العیون فمن کان جائعا شبع ومن کان ظمآن روی فیکون زادهم حتی ینزلوا النجف من ظاهر الکوفة فإذا نزلوا ظاهرها انبعث منه الماء واللبن دائماً فمن کان جائعا شبعا ومن کان عطشانا روی).(۱)

نشاهد فی الحدیث نقاط عظیمة تجعلنا نتیقَّن بما تحدَّثنا عنه من أنَّ مواصفات دولة الإمام المهدی هی نفس جنَّة آدم علیه السلام ونفس الحالة التّی کان یعیشها بنو إسرائیل قبل هبوطهم مصراً وذلک:

لأنَّهم لا یحملون معهم طعاماً ولا شراباً فماذا یأکلون إذاً؟ إنَّ الحجَّة علیه السلام یحمل حجر موسی ذلک الحجر الذی انبجست منه اثنتی عشرة عیناً کما صرَّح القرآن بذلک.

جاء فی کلام الإمام علیه السلام فانبجست منه العیون فمن کان جائعا شبع ومن کان ظمآن روی فهل ذلک العین یروی الضمآن فکیف یُشبع الجائع؟! تأمّل فی هذا الحدیث ثمَّ قایس بینه وبین قوله تعالی: (إن لک ألّا تجوع فیها ولا تعری وأنک لا تظمأ فیها ولا تضحی)(۲) الوارد فی شأن جنَّة نبیِّنا آدم علیه السلام وتأمَّل أیضاً فی قوله تعالی (وإذ استسقی موسی لقومه فقلنا اضرب بعصاک الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عینا قد علم کل أناس مشربهم کلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فی الأرض مفسدین)(۳) علماً بأنَّ هذه الآیة وقعت فی تلک الآیات التی تبیِّن حال بنی إسرائیل قبل الهبوط وبعد الهبوط.

ثمَّ: إنَّه علیه السلام فی قوله فإذا نزلوا ظاهرها انبعث منه الماء و اللبن دائما فمن کان جائعا شبعا و من کان عطشانا روی قد بیَّن صفة

الجنَّة حيث أنَّ انبعاث الماء واللبن بنحو دائم ليس أمراً دنيوياً خشناً بل هو أمر معنوى لطيف.

والمستفاد من الحديث أنَّ هذا حال الإمام عليه السلام و أصحابه وهو فى بداية ثورته المباركة و قد قام عليه السلام بمكَّة و أراد أن يتوجَّه إلى الكوفة فكيف بعد استقرار حكومته و تمكينه الكامل على الأرض كلِّه!!

ثم: إنَّ الحديث التالى يبيِّن لنا السند الذى يتَّكأ عليه الإمام عليه السلام فى حكمه (على بن إبراهيم و احمد بن مهران جميعا عن محمد بن على عن الحسن بن راشد عن يعقوب بن جعفر قال كنت عند أبى إبراهيم عليه السلام و أتاه رجل من أهل نجران اليمن من الرهبان و معه راهبة فاستاذن لهما الفضل بن سوار فقال له إذا كان غداً فات بهما عند بئر أم خير ... .إلى أن قال.. و سأل الراهب عن أشياء لم يكن عند الراهب فيها شئ فاخبره بها ثم إنَّ الراهب قال أخبرنى عن ثمانية أحرف نزلت فتبين فى الأرض منها أربعة وبقى فى الهواء منها أربعة على من نزلت تلك الأربعة التى فى الهواء ومن يفسرها قال: ذاك قائمنا ينزله الله عليه فيفسره وينزل عليه ما لم ينزل على الصديقين والرسل والمهتدين..).(۴)

الخاتمة

أفضل العبادة انتظار الفَرج

من هنا نعرف السرّ فى صدور مئات من الأحاديث التّى تؤكِّد على أنَّ انتظار الفَرَج هو أفضل العبادة و ذلك لأنَّ ذكر الله فى أعلى مستواه و أرفع درجاته هو ذكر تلك الدولة المباركة التّى تتصف بجميع مواصفات جنَّة آدم عليه السلام، تلك الدولة التّى سوف يعيش فيها الإنسان فى جوار ربِّه و تحت ظل بارئه و فى ساحتها تتحقق رحمة الربّ التى أشار إليها سبحانه فى قوله: (إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم).(۵)

فهى إذاً الغاية العمليَّة لأصل الخلق كما مرَّ و بدونها لا يتصف الخلق بالحمكة أصلاً.

ومن هنا صار من اللازم أن نتحدَّث عن هذه العبادة أعنى الإنتظار أكثر تفصيلاً وذلك لأهميَّتها من بين سائر العبادات وسوف نبيِّنها ضمن عناوين مختلفة فنقول:

[الفصل الحادى عشر] معنى الانتظار فى اللغة و الاصطلاح

[تمهيد]

المعنى اللغوى: كلمة الانتظار قد أُشتقت من (نظر) قال صاحب المفردات:(نظر: النظر تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشىء ورؤيته وقد يراد به التأمل والفحص وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص.....والنظر الانتظار يقال نظرته وانتظرته وأنظرته)

وهناك كلمتان فى اللغة معناهما متقاربان مع هذه الكلمة وقد استعملتا فى القرآن الكريم أيضاً وهما:

۱-رصد : الرصد الاستعداد للترقب يقال رصد له وترصد وأرصدته له. قال عز وجل: (وإرصاداً لمن حاربَ اللهَ ورسولَه مِن قَبلُ).(۶)

قال فى النهاية: يقال رصدته إذا قعدت له على طريقه تترقبه و ارصدت له العقوبة إذا أعددتها و حقيقته جعلتها على طريقه كالمترقبة له. (نقلاً عن الأمالى بإسناده.. قال أمير المؤمنين عليه السلام لأصحابه يوما و هو يعظهم ترصَّدوا مواعيد الآجال و باشروها بمحاسن الأعمال.).(۷)

و قال علىٌّ فى نهج البلاغة (اعلموا عباد الله إن عليكم رصَداً من أنفسكم و عيوناً من جوارحكم و حفاظ صدق يحفظون أعمالكم و عدد أنفاسكم لا تستركم منهم ظلمه ليل داج).(۸)

۲-رقب: قال تعالى والرقيب الحافظ وذلك إما لمراعاته رقبة المحفوظ وإما لرفعه رقبته قال تعالى:

(وارتقبوا إنى معكم رقيب).(۹)

وقد وردت أحاديث استعملت فيها هذه الكلمة بمعنى الانتظار.

منها: ما ورد فى نهج البلاغة عن علىٍّ عليه السلام قال:

(ومن ارتقب الموت سارع فى الخيرات).(۱۰)

منها: فى كتابه عليه السلام لمحمَّد بن أبى بكر

(ارتقب وقت الصلاة فصلها لوقتها ولا تعجل بها قبله لفراغ ولا تؤخرها عنه لشغل...).(۱۱)

ثمَّ إنَّ الراغب الإصفهانى عند بيان مادة (صبر) قال: ويعبر عن الانتظار بالصبر لما كان حق الانتظار أن لا ينفك عن الصبر بل هو نوع من الصبر قال (فاصبر لحكم ربك)(۱۲) أى انتظر حكمه لك على الكافرين.

أقول:إنَّ هذا الإستعمال هو استعمال مجازى من باب إستعمال اللازم وإرادة الملزوم وهو شائع فى كلام العرب.

المعنى الإصطلاحى للانتظار: ويعنى به خصوص انتظار فرج الله الذى هو فرج حجة الله الإمام الثانى عشر المهدى المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف الذى به يكشف الله الغم، ومن هذا المنطلق تُبِعت الكلمة بكلمة الفَرَج الذى هو الانكشاف، وهذا المعنى للكلمة هو المقصود منه فى أحاديثنا الشريفة و تشير إليه بعض الآيات القرآنية أيضاً على ما سيأتى.

أهميَّة انتظار الفرج

وعندما نبحث فى الأحاديث المختلفة الصادرة عن المعصومين عليهم السلام نستنتج أنَّ الأعمال كلَّها مع فى فيها من الأهميَّة والاعتبار فهى فى قبال الانتظار قليلة المستوى حيث أنَّ الانتظار هو: "أفضل الأعمال"(۱۳)

أفضل الأعمال

بل جميع الأعمال العبادية مع ما لها من القدسيَّة والروحانيَّة فهى ليست راجحة على الإنتظار حيث أنَّه (أفضل عبادة الأمَّة)(۱۴) والجدير بالذكر أنَّ هذه العبادة أعنى الإنتظار قد دخلت فى ساحة أهمّ العبادات وهو الجهاد فى سبيل الله وصار (أفضل جهاد الأمة) كما فى الحديث التالى الصادر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم حيث قال: (افضل جهاد أمتى انتظار الفرج).(۱۵)

ومن زاوية عرفانيَّة فللانتظار أيضاً مستوى رفيع من العرفان والروحانيَّة حيث صار(أحبَ الأعمال إلى الله) حتَّى وصل المنتظر إلى مستوى الشهيد فى سبيل الله.

(.. قال أمير المؤمنين عليه السلام انتظروا الفرج و لا تيأسوا من روح الله فان احب الأعمال إلى الله عز و جل انتظار الفرج.... و المنتظر لأمرنا كالمتشحط بدمه فى سبيل الله).(۱۶)

بل هناك أحاديث تؤكِّد على أنَّ (انتظار الفرج من الفرج) بل (انتظار الفرج من أعظم الفرج).

(...عن محمد بن الفضيل عن الرضا عليه السلام قال سألته عن شئ من الفرج فقال أليس انتظار الفرج من الفرج إن الله عز و جل يقول فانتظروا إنى معكم من المنتظرين).(۱۷)

وهذا المعنى من الانتظار أعنى انتظار الفرج قد أكتسب قسطاً من القدسية والاعتبار بحيث صار من علائم الإخلاص الحقيقى والتشيُّع الصادق ومن مميزات الدعاة إلى دين الله سراً وجهراً و قد ورد فى الحديث

(..أولئك المخلصون حقا وشيعتنا صدقا والدعاة إلى دين الله سرا وجهرا..).(۱۸)

السرُّ فى أهميَّة الانتظار

لمعرفة السرّ فى ذلك ينبغى لنا أن نتحدَّث بالتفصيل حول واقع الانتظار بذكر مقدَّمة مختصرة فنقول:

إن التقييم فى القاموس الإلهى يختلف تماماً عن التقييم فى القاموس المادِّى ومن الخطأ جداً محاولة تقييم القضايا المعنوية الراقية والمفاهيم الروحانية السامية بالمعايير الماديَّة حيث أن هناك بونٌ بعيد بينهما بل هما فى طرفى النقيض وقد وصل التضادّ بينهما إلى مستوى بحيث لا يمكن أن ينقطع الإنسان إلى المعنويات إلا بالابتعاد الكامل عن المادِّيات و أعنى بالابتعاد عنها هو عدم التوجُّه إليها وعدم انشغال الذهن بها.

هذا: ومفهوم الانتظار أعنى انتظار فرجِ الله هو فى الواقع يندرج تحت اسم من أسماء الله تعالى أعنى" الكاشف "كما فى الدعاء:

(يا صريخ المكروبين ويا مجيب المضطرين ويا كاشف الكرب العظيم)(۱۹) (يا كاشف الغم)(۲۰) (يا كاشف الكرب العظام).(۲۱)

وعلى ضوئه صار مفهوم الانتظار مفهوما معنويا إلهياً حيثُ أنَّه لا يمكن لشىءٍ أن يكتسب جانباً معنوياً ويشتمل على بعدٍ مُقدَّس إلاّ بارتباطه بالله سبحانه وبمقدار ظهور اسم الله فيه، فلنترك إذاً الساحةَ المادية ولنبحث عن الأفضلية فى الساحة الإلهية المعنوية.

فنقول:

القرب إلى الله ميزان الأفضلية

ثم لا يخفى على كلِّ من آمن بالله سبحانه أنه ليس فى القاموس الإلهى إلاّ ميزان واحد، يقاس به الأفضلية وهو الميزان الحقيقى (وهو الحق) وغيره ليست بموازين بل يُترائى أنها موازين فلا حقيقةَ لها ولا ثِقل فيها قال تعالى:

(والوزنُ يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون)(۲۲) (ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون)(۲۳) (فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون).(۲۴)

وهذا الميزان هو": التقرب إلى الله سبحانه وتعالى "فيجب أن نبحثَ عن مستوى التقرُّب إليه تعالى فى الانتظار وعلى ضوءه نقيِّم مستوى قدسيَّة الانتظار، حتَّى نعرف السرَّ فى أفضليَّته على سائر الأعمال بل حتَّى العبادات بحيث صار المنتظر كالمتشحِّط بدمه فى سبيل الله.

الرجاء بالله

إنَّ من أهم نتائج انتظار الفرج تنميةَ روحيةِ الرجاء بالله فى الإنسان المؤمن حيث يُشاهد أمامَه مجالاً وسيعاً من الفضل والكرم والخير الإلهى الذى سوف تظهر مصداقيَّتُها فى تلك الدولة العظيمة المباركة وهى دولة المهدى المنتظر صلوات الله وسلامه عليه، تلك الدولة الكريمة التّى يعزُّ الله بها الإسلام وأهلَه ويذلُّ بها النفاق وأهلَه، ومن الطبيعى لمن يمتلك هذه الرؤية أن يحتقر العالم الذى يعيشه بما فيه من المُغريات الخلاّبة الدنيوية والتسويلات الشيطانية، وهذا الأمر(أعنى تحقير المظاهر الدنيويَّة) هو أوَّل خطوة يخطوها السالك إلى الله وهى (التخلية) التّى تستتبعها (التحلية) ومثل هذا الإنسان المؤمن قد وصل بالفعل إلى مُستوى من العرفان والعبودية بحيث يكون لسان مقالِه حالِه وعملِه هو (صلِّ على محمدٍ و آل محمد وأثبتْ رجائك فى قلبى و اقطعْ رجائى عمَّن سواك حتى لا أرجو إلا إيّاك..).(۲۵)

ثمَّ يترقَّى فى العبوديَّة فيقول: (بسم الله الذى لا أرجو إلاّ فَضله)(۲۶) (يا من أرجوه لكل خير).(۲۷)

هذه الروحية إن تركَّزت فى الإنسان المؤمن فسوف تُعمِّق جذورَها فتقمع جميعَ الأشواك والموانع الصادَّة،لتنشرَ فروعَها الطيِّبة وثمارَها الجنيَّة فى السماء حتَّى تؤتى أكلَها كلَّ حينٍ بإذنِ ربِّها. فكيف لا يكون الانتظار أفضلَ الأعمال بل أفضل العبادات؟! وهو الذى يُخيِّم على جميع الأعمال ويُلقى الضوء عليها.

أفضل الجهاد

ما هو الأمر المتوقع من المجاهد فى سبيل الله حين الجهاد؟ وما قيمة المجاهد لولا التيّةُ الصادقة التى تنصبُّ فى سبيل الله؟

هـذا الأمر بنفسه بل أعلى مستوى منه متوفِّر فى المنتظر الحقيقى الـذى يتمنَّى فى كلِّ صباحٍ ومساءٍ أن يعيش فى ظلِّ ذلك المعشوق روحى لتراب مقدمه الفداء ولسان حاله (..فأخرجنى من قبرى مؤتزراً كفنى شاهراً سيفى مجرداً قناتى ملبياً دعوةَ الداعى فى الحاضرِ و البادى..)(۲۸) وهو بقربه إلى الله وشهوده مقام ربِّه صار كالمتشحِّط بدمه فى سبيل الله شهيداً فى سبيل الله،وليس للشهيد خصوصيةٌ كمصداق بل الخصوصية والقيمة لمفهوم الشهادة التى تعنى الوصول إلى الله و شهود وجه المحبوب، والمنتظِر يؤدِّى نفس الدور حيث يشاهد وجهَ ربه و هو فى نفس الوقت يعايش الناس،وهذه الحالة هى التى تحقِّق فيه الصفاتِ الحسنة التى ذكرت فى الأحاديث الشريفة على ما سيأتى عند بيان أخلاق المُنتظِر.

والحديث التالى قد بيَّن السر الذى رفع مستوى الانتظار إلى هذه الدرجة:

(عن أبى حمزة الثمالى عن أبى خالد الكابلى عن على بن الحسين عليه السلام قال تمتد الغيبة بولى الله الثانى عشر من أوصياء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم و الأئمة بعده يا أبا خالد إنَّ أهل زمان غيبته القائلون بإمامته المنتظرون لظهوره افضل أهل كل زمان لان الله تعالى ذكره أعطاهم من العقول و الإفهام و المعرفة ما صارت به الغيبة عندهم بمنزله المشاهدة وجعلهم فى ذلك الزمان بمنزله المجاهدين بين يدى رسول الله صلى الله عليه وآله و سلَّم بالسيف أولئك المخلصون حقا و شيعتنا صدقا و الدعاة إلى دين الله سرا و جهرا و قال: انتظار الفرج من اعظم الفرج).(۲۹)

وماذا بعد الفرج؟ إلا كشف الكربة عن وجه المؤمن برؤية الواقع و الأمر حينما تتحقق تلك الدولة العظيمة التى تملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلِئت ظلماً وجَوراً؟

فالانتظار إذاً له نتيجتان:

۱- إنَّه بالفعل يُحقِّق (كشف الكربة) بنحو مجمل.

۲- إنَّه عاملٌ جذرى أساسى للفرج بظهوره سلام الله عليه حيث يسود الحكمُ الإلهى الأرضَ كلّها.

ووزانُ الانتظار وزانُ النية التى هى خير من العمل حيث جاء فى الحديث" نية المؤمن خير من عمله "لأن هذه النية من ناحية هى التّى ترفع مستوى الإنسان ومن ناحية أخرى تلازم العمل بل توجده (قل كلٌ يعملُ على شاكلته).(۳۰)

وليعلمْ أنَّ تعجيل الفرج يتناسب مع الإنتظار شدَّةً وضعفاً. ومن هذا المنطلق نشاهد أن الآية الكريمة تصرح بقولها:

(..وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب)(۳۱) فقربُ نصر الله متناسبٌ مع طلب النصر (متى نصر الله) وهذا الطلب الأكيد لا يحصل إلاّ بعد اليأس (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين).(۳۲)

الانتظار و جانباه الإيجابى و السلبى

[تمهيد]

اشارة

إنَّ كلمة الانتظار تدُّل على حالتين كامنتين فى روح المنتظر، فمع التأمَّل فى هذه الكلمة نشاهد أنَّها تدلُّ على جانبين أساسيين (إيجابىٌ وسلبىٌ) لكل منهما دور مهمّ فى معنى الكلمة وهذان الجانبان هما:

۱- الإيجابى: الجانب المطلوب و المحبوب للمنتظِر و المتوقَّع الوصول إليه وهو الخير والبركة وتمكين الدين على الأرض كلِّه فلو لم يتوقع حدوث حالة جديدة و إيجابية فى المستقبل فلا مصداقية للانتظار ولا معنى له.

۲- السلبى: الجانب غير المطلوب و غير المحبوب الذى يتمثَّل فى الحالة الفعلية التى يعيش فيها المنتظر تلك الحالة المُؤذية التى يأمل المنتظر أن يتخلَّص منها،فلو كان الوضع الفعلى هو الوضع المطلوب فلا معنى للانتظار إذاً ولا مبرر له.

وبعبارة أوضح: هناك تناسب عكسى بين أمرين هما:

۱- اليأس من الحالة الفعليَّة المعاشَة.

۲- الرغبة فى الحالة المستقبليَّة المتوقعة.

هذا ما يستفاد من نفس الكلمة من دون النظر إلى أى أمرٍ آخر خارج الكلمة وتشهد لهذه الحقيقة الآية الكريمة التّى وردت فى هذا المجال حيث المعنى والسياق وحيث الأحاديث الدالَّة على ذلك:

قال تعالى: (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون).(۳۳)

فالآية الكريمة تشير إلى الجانبين المتواجدين فى نفس المضطر:

۱- سوءٌ غير مكشوف وهو السوء المطلق الذى من خلاله حدثت سائر مصاديق السوء وهذا السوء يتمثَّل فى أمرٍ واحد وهو أنَّ خلافة الأرض ليست بيد المُضطَر.

۲- وهناك توقُّع ورجاء و رغبة كامنة فى نفس المضطر وهى أن تكون الخلافة العامَّة على جميع الأرض له ولمن يقتدى به ويخطو خطاه.

وأمّا الحديث عن شخصيَّة المضطر وأنَّه من هو؟ فهو خارج عن بحثنا ههنا ولكن قوله تعالى (ويجعلَكم خلفاء الأرض) يُنبأنا عن حقائق كثيرة لعلَّنا شرحناها فيما بعد.

فلا يمكن للمؤمن ممارسةُ عمليةِ الانتظار إلّا بعد عرفان أمرين متلازمين:

الأول: [التولِّى]

و هو الأصل و الأهم و يتمثَّل فى معرفة تلك الخلافة الإلهيَّة و هذا هو التولِّى.

الثانى: [التبرِّى]

و هو تابعٌ وملازم للأصل وهو معرفة السوء الذى يتمثَّل فى الواقع الفعلى ومن ثمَّ التبرِّى منه.

وكلا الأمرين يفتقران إلى الوعى والتدبُّر والدقَّة فنقول:

إنَّه من الأفضل أن نبدأ بالأمر الثانى أعنى معرفة السوء ورفضه تحت عنوان الإنتظار والرفض ثمَّ نتحدَّث عن الأمر الأوَّل تحت عنوان الانتظار والرجاء.

الانتظار و الرفض

[توضيح]

إنَّه من الضرورى لمن يعيش حالة الانتظار أن يعرف مدى انحراف الواقع الفعلى عن الحقيقة والصواب وينبغى أن يصل إلى مستوى من الانزجار والتنفُّر بحيث يحسّ بأنَّه بالفعل سجين فى هذه الدنيا وبالفعل هو مقيّدٌ بأنواع القيود التّى لا مفكَّ منها ولا مفرّ إلّا بظهور

المنجى الحقيقى وهو الحجة بن الحسن المهدى عجل الله تعالى فرجه الشريف.. وينبغى له أن يشعر بأنَّ المشكلة الّتى يعيشها ليست هى مُشكلةٌ جزئيَّة يمكن التحرّى عنها والتخلُّص منها بسهولة بل هى مُشكلةٌ كبيرة ومعضلةٌ عظمى قد رسَّخت جذورَها فى جميع الأرجاء ونشرت سمومَها فى كافة الأنحاء، فنحن عندما نلاحظ المجتمع نرى أنّ أبشع أنواع الظلم يسوده فلا حرية فكرية تحكم الناس ولا إرادة يمارسونها وإن كانوا يتصورون أنهم أحرار.

فعلى سبيل المثال نشاهد أنَّ الأجهزة الإعلاميَّة العالميَّة تجسِّد الباطل وكأنَّه الحقّ وتصوِّر الكذب وكأنه الصدق وكل شىء حول الإنسان مزيَّف ولكنَّه لا يشعر بهذه المشكلة التى وقعت عليه فلا يفكر إذاً فى تبديل ما هو عليه من الانحراف والإغفال.

فإذاً للتعجيل فى فرجه عليه السلام ولإيجاد الداعى فى المجتمع يجب أن ينتشر وعلى الأقلّ الشعور بالمظلوميَّة كى يعلم الإنسان ويحس بكلِّ وجوده بأن الظلم قد شمله هو أيضاً حيث يعيش تحت ظلّ تلك الشجرة الخبيثة الّتى أسَّستها السقيفة حيث ظهر الفساد فى البرِّ والبحر ومن ثمَّ سوف يفكر فى إنقاذ نفسه من هذه المشكلة.

وينبغى للإنسان أن يعرف أنَّه لا محيص ولا مناص إلّا بتوجُّهه عليه السلام، ومن ثمَّ بظهوره ومباشرته للحلّ بأسلوبه الملكوتى، وعليه أن يدرك هذه الحقيقة بجميع وجوده بروحه ودمه وجسمه وجوارحه بحيث لا تمرُّ عليه ساعة بل لحظة إلا وهو يشعر بفقدان النور وباستيلاء الظلام على الكون وهذه الحالة لا تحصل له إلا بالمعرفة أعنى معرفة الله و معرفتهم عليهم السلام ودولتهم المباركة فلا بد أن يكون على بصيرة من أمره حيث أن الأعمى لا يمكنه أن يدرك النور مهما شُرِح له، وهذه المعرفة تلازمها معرفة أخرى وهى معرفة أساليب الأعداء الشيطانيَّة و مستوى عداوتهم للحق وانحرافهم عن الواقع وبعدهم عن الله تعالى، وعند وصول المؤمن إلى هذه المرحلة من الوعى والإدراك ينبغى له أن يلتزم بواجب هو من أهمِّ الواجبات ألا وهو التبرى من أعداء الله.

ثمَّ إنَّ هذه الحالة النفسية أعنى الرفض سوف تكون لها آثار إيجابيَّة فى أخلاقه وأعماله تجعله يشتاق إلى ما سيحقَّق من النصر وتمكين الحق وهكذا سوف يزداد الاشتياق إلى أن ينقلبَ إلى قرارٍ حاسمٍ ومن ثمَّ إرادة جدِّية وطلب مؤكَّد وحينئذ سوف يراه المهدى عليه السلام (متى ترانا) ومثل هذا الإنسان سوف يتفاجأ برؤيته عليه السلام فلا يرى نفسَه إلّا ويعيش دولته العظيمة وظلَّه الملكوتى المبارك (..ونراك وقد نشرت راية الحق تُرى)

الرفض من العبادات الاجتماعية

إنَّه من النتائج الخبيثة والآثار السيِّئة التى نشأت جرّاء عزل الدين عن المجتمع و فصلة عن الحُكم خلال قرونٍ متواليةٍ، هو تحريف المفاهيم الدينية وتفسيرها تفسيراً مؤطَّراً بإطار الفرد لا يتخطاه قيد أنملة وكأنَّ الدين لا يمسُّ المجتمع بصلة، وهذه الآفة قد تسرَّبت بشدّة فى تقييم المفاهيم الأخلاقية الواردة فى القرآن الكريم والأحاديث الشريفة،فقد فُسرَّت جميعها أو أكثرها تفسيراً فردياً وكأنها لا علاقة لها بالمجتمع ولا مساس لها بالأمَّة وكأن الغاية من بعث الرسل وإنزال الكتب هو إيصال الأفراد كأفرادٍ إلى الكمال المطلوب ليس إلّا.

ومن المؤسف أنَّ هذا النوع من التفسير مع غاية بعده عن روح الإسلام صار كالبديهى عند أكثر المسلمين حتى عند علماء الإسلام، وقد تركزت هذه الأفكار فى المجتمع-من خلال هؤلاء الجهلة- تركيزاً شديداً بحيث أصبح كلُّ من يخالفها من جملة الشاذِّين عن الدين وفى زمرة المنحرفين عن الصراط المستقيم!! وبالنتيجة من المطرودين والخارجين عن ربقة الإسلام والمسلمين.

هذا والقرآن بصريح العبارة يبيِّن السرّ فى بعث الرسل بقوله:

(لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز).(۳۴)

ومن الواضح أنَّ للحديد الذى هو كناية عن القدرة دورٌ مهم وأساسى فى بناء المجتمع فهو الساعد الآخر الذى يضمن تنفيذَ قوانين

الدين بعد الإيمان بالله. ولم يكتف القرآن بذلك بل حرَّضَ كافة المؤمنين بالقيام بالقسط فقال:

(يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله).(۳۵)

وعلى ضوئه: ينبغى أن لا ننظر إلى المفاهيم الإسلامية من منظار فردى فحسب بل لا بد أن يكون المنظار الاجتماعى هو الحاكم و هو المخيم على التحليلات الإسلاميَّة والمفاهيم الأخلاقية.

فمثلاـ التقوى ليس هو مفهوم أخلاقى فردى فحسب بل هو مفهوم اجتماعى أيضا فهناك تقوى فى الإنسان كفرد و هناك تقوى أهمّ وهو التقوى بمفهومه الاجتماعى الذى يرجع إلى الأمة المؤمنة ولكلٍ منهما أثره الخاص به ولكل جزاءه المترتب عليه وثوابه المنسجم معه.

الهوامش

---

(۱) بحار الأنوار ج ۵۲ ص ۳۳۵ رواية ۶۷ باب ۲۷. (۲) طه ۱۱۸-۱۱۹. (۳) البقرة ۵۹. (۴) الكافى ج۱ ص۴۸۱ رواية۵. (۵) هود ۱۱۹. (۶) التوبة ۱۰۷. (۷) بحار الأنوار ج ۷۷ ص ۳۷۳ رواية ۳۵باب ۱۴. (۸) بحار الأنوار ج ۵ ص ۳۲۲ رواية ۳ باب ۱۷. (۹) هود ۹۳. (۱۰) بحار الأنوار ج ۶۸ ص ۳۴۷ رواية ۱۷ باب ۲۷. (۱۱) بحار الأنوار ج ۸۳ ص ۱۴ رواية ۲۵ باب ۶. (۱۲) الإنسان ۲۴. (۱۳) بحار الأنوار ج ۱۰ ص ۹۹ رواية ۱ باب ۷ و ج ۵۲ ص ۱۲۲ رواية ۲ باب ۲۲. (۱۴) بحار الأنوار ج ۵۲ ص ۱۲۲ رواية ۳ باب ۲۲و ج ۵۲ ص ۱۲۵ رواية ۱۱ باب ۲۲. (۱۵) بحار الأنوار ج ۷۷ ص ۱۴۳ رواية ۱ باب ۷. (۱۶) بحار الأنوار ج ۵۲ ص ۱۲۳ رواية ۷ باب ۲۲. (۱۷) بحار الأنوار ج۵۲ ص۱۲۸. (۱۸) بحار الأنوار ج ۳۶ ص ۳۸۷ رواية ۱ باب ۴۴. (۱۹) بحار الأنوار ج ۸۶ ص ۳۲۳ رواية ۶۹ باب ۴۵. (۲۰) بحار الأنوار ج ۸۶ ص ۳۲۳ رواية ۶۹ باب ۴۵. (۲۱) بحار الأنوار ج ۸۶ ص ۲۳۵ رواية ۵۹ باب ۴۴. (۲۲) أعراف ۸. (۲۳) الأعراف ۹. (۲۴) يونس ۲۳. (۲۵) بحار الأنوار ج ۸۶ ص ۲۱۶ رواية ۳۰ باب ۴۴. (۲۶) بحار الأنوار ج ۹۰ ص ۱۶۴ رواية ۱۵ باب ۹. (۲۷) بحار الأنوار ج ۴۷ ص ۳۶ رواية ۳۵ باب ۴. (۲۸) بحار الأنوار ج ۵۳ ص ۹۶ رواية ۱۱۱ باب ۲۹. (۲۹) بحار الأنوار ج ۵۲ ص ۱۲۲ رواية ۴ باب ۲۲. (۳۰) الإسراء ۸۴ (۳۱) بقرة ۲۱۴. (۳۲) يوسف ۱۱۰. (۳۳) النمل۶۲. (۳۴) الحديد ۲۵. (۳۵) النساء ۱۳۵.

وكذلك مفهوم الإيثار و الإخلاص و الكرم و الجود و الغيرة و الشجاعة وغيرها من القيم الإنسانية الإسلامية.

نفس الحديث يتأتّى فى المفاهيم اللا إنسانية و القيم اللا أخلاقية و اللا إسلامية..كالبخل و الرياء والنفاق و الخيانة والشره والجبن وغيرها من المفاهيم.

نعم هناك بعض المفاهيم (وهى قليلة) يتغلب عليها الجانب الفردى كما أن هناك مفاهيم يتغلب عليها الجانب الاجتماعى، و لكن هذا لا يعنى أن نتمسك بها كمفاهيم خاصّة فرديَّة.

والمتأمل فى القرآن الكريم والأحاديث الشريفة سوف يذعن بما قلناه. ولا بأس بذكر مثال واحد فنقول:

مثلاـ قوله تعالى فى سورة الشعراء فى ثمان آيات عن لسان الأنبياء (فاتقوا الله و أطيعون)(۱) وكذلك فى سورة الزخرف(۲)، هو خطاب للمجتمع الذى كانوا يعيشونه، ذلك المجتمع المبتعد عن واقع الدين. وليس الخطاب متوجِّهٌ إلى الأفراد خاصَّةً.

ومن هذا المنطلق نقول لو أن القيم الأخلاقية أو المفاهيم الاعتقادية رسخت فى عدد من الأفراد حق الرسوخ ولكن لم تتجسد تلك المفاهيم فى الأمة الإسلامية كأمة فهل يجدى ذلك نفعا للأمة؟ وهل يرتفع الضرر عن الأمة؟ من الواضح أن ذلك لا يجلب منفعة للأمَّة كما أنه سوف لا يدفع شراً عنها بل المصيبة سوف تشمل الأفراد أيضا مهما كانوا يتحلَّون بالصلاح والخير قال تعالى:

(فلما نسُوا ما ذكّروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون)(۳) (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصّة واعلموا أنَّ الله شديد العقاب).(۴)

وذلك حيث لا استثناء فى القانون الإلهى الذى يتعلَّق بالأمَّة.

بل لو دققنا النظر وتعمقنا فى الأمر لوصلنا إلى حقيقة أخرى قد استترت عن الكثير وهى: أنه من الصعب أن نحكم بصلاح فرد وهو يعيش فى أمة فاسدة ذلك الفرد الذى لم يوصل نفسَه إلى مستوى القيادة والإشراف على أمَّته أو لم يهجرهم هجراً جميلاً كى يسلم من آفاتهم!!

وربما نستلهم هذا الأمر من الآتيين السابقتين:

فبالنسبة إلى الآية الأولى نلاحظ أنَّ الذين نجَوا هم الذين (ينهون عن السوء) وأمّا الذين ظلموا الذين هم الفسّاق سواء المظهر فسقه أو الساكت عن الجريمة فإنَّ الله قد أهلكهم.

وبالنسبة إلى الآية الثانية نشاهد أنَّ غير الظالمين أيضاً قد شملتهم الفتنة حيث أنَّ استسلامهم للظلم هو ظلمٌ فى القاموس الإلهى.

صفات المنتظِر

صفاته الاجتماعية

الأحاديث الشريفة قد ذكرت صفات للمنتظر وهى (الحزن -التسليم-اليأس-وطول السجود وقيام الليل واجتناب المحارم - والدعوة إلى دين الله سراً و جهراً-وحسن العزاء وكرم الصحبة-وحسن الجوار وبذل المعروف وكف الأذى وبسط الوجه و النصيحة والرحمة للمؤمنين وأداء الأمانة إلى البر والفاجر)

ولكن:

على ضوء ما شرحنا ينبغى أن نعرف بأن صفات المنتظر ليست هى صفات فرديَّة فحسب بل ينبغى أن ينطلق الفرد منها فى بادئ الأمر لتستوعب كافَّة زوايا المجتمع الذى يعيشه وتتفاعل به الأمَّة حتى تعمُّ فائدتها، فالانتظار وما يترتب عليه من الصبر والحزن وحسن العزاء واليأس ووو.. كلها لا بد أن تتجسد فى المجتمع ولا تنحصر فى الفرد ومع تجسُّدها فى المجتمع سوف يقترب الفرج وينكشف الضرّ إنشاء الله.

الرفض الاجتماعى

[تمهيد]

و هاهنا و بصريح العبارة نقول:

أنَّ التكليف الرئيسى الذى يُمثِّل أهم التكاليف فى عصر الغيبة هو ما أشرنا إليه سابقاً وهو الرفض ولكن هذا التكليف ليس هو تكليفاً فردياً فحسب بل هو تكليفٌ اجتماعى فيلزم على المؤمن أن يكون رفضُه رفضاً ينطلق من منطلق شرعى الهى حتى يتقرب به إلى الله فيكون عبادةً من نمط العبادات الاجتماعية التى تخيِّم على جميع العبادات الفردية.

ولأجل أن يتَّسم الرافض للمجتمع الفاسد بوسامٍ إلهى ينبغى له أن يمارس الأمور التالية:

الأول:

البناء الفردى وأعنى به السعى للتقرب إلى الله بالتلبس بلباس التقوى الذى هو خير لباسٍ حتَّى يرتفع مستوى رفضه هذا من السلب المطلق الذِّى هو (لا) إلى سلبٍ يتضمَّن إيجاباً. وعندئذ سوف يكون رفضُه رفضاً مقدَّساً له معنى ومفهوم رسالى عميق فليست كلُّ لاءٍ هى بالفعل لاء، بل هذا النمط من اللاء أفضل من ملايين نعم إن صحَّ القياس بينهما.

فهذا الرفض ليس من السكوت المذموم الذى هو حالةٌ سلبيةٌ جوفاءُ تُعرقل الإنسان والمجتمع. كلّا! بل هو حالةُ صراخٍ ليس مثلها صراخ (ويكفيك نموذجاً سكوت عليٍّ عليه السلام طوال خمسة وعشرين سنة) وهذه الحالة هى الحالة التكاملية التّى تبنى الإنسان وترفع من مستواه إلى الأعلى وتجعله يتكامل شيئاً فشيئاً من دون الوقوف عند حدٍّ.. وكذلك تُنمّى المجتمع وترفع مستواه وتجعله يعيش عيشة عزيزة لا يتسرب إليها ذلٌّ وهوان ولا تعتريها آفةٌ وخذلان. فلِمَ لا تكون هذه الحالة أفضل العبادة؟ ولِمَ لا يكون أفضل الجهاد؟ ولم لا يصل هذا الإنسان المتحلّى به إلى مستوى المتشحط بدمه فى سبيل الله؟

الثانى:

إنَّ هذا الرفض لا يمكن أن يستقرَّ فى ضمير الإنسان إلا بعد تعزيزه بخصال حميدة أخرى وهى:

الصبر:

الأول: الصبر

وهذه الصفة هى أهم تلك الصفات لأنَّها فى الواقع الضمان لتلك الحالة، والصبر هاهنا يختلف عن الصبر فى المواطن الأخرى بل الصبر الحقيقى الذى هو كالأم لسائر المصاديق هو هذا النوع من الصبر حيث اشتماله على جميع أنواع الصبر التى نطقت بها أحاديثنا الشريفة وهى ثلاثة كما فى الحديث الذى نقله المحدِّث الكلينى قدِّس سرُّه:

(بإسناده عن على عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم الصبر ثلاثة: صبرٌ عند المصيبة، وصبرٌ على الطاعة، وصبرٌ عن المعصية...).(۵)

وقد ذكرت هذه الرواية درجاتٍ أخروية لكلٍّ من تلك الأصناف الثلاثة

ولكنَّ الصبر الملازم للانتظار قد استوعب هذه المراحل الثلاثة وذلك لأنَّه:

*هناك أعظم مصيبة ابتلى بها المؤمن المنتظر وهى مصيبة فقدان قائده الروحى وإمامه الثانى عشر الحجَّة بن الحسن المهدى عجَّل الله تعالى فرجه الشريف، فهو يعيش حالة اليتم وهذه المعضلة العظمى بطبيعتها تتطلَّب الصبر.

*هناك طاعة تتجسد فى التبرى من كل ما و من هو يزاحم هذه الروحيَّة(أعنى روحيَّة الانتظار) (فإنهم عدولى إلاّ ربّ العالمين).

*وهناك معاصى محيطة بهذا الإنسان المؤمن إحاطة كاملة، تلك الأمور التى تقصم الظهر من المُغريات المادِّية والتسويلات الشيطانية المنتشرة على مستوى وسيع بحيث لا يلتفت الإنسان يميناً أو يساراً إلاّ وهى بارزة أمامَه خصوصاً فى عصرنا الحالى حيث الأقمار الصناعية وحيث الشبكات الدوليَّة مثل الإنترنت والأجهزة الإعلاميّة التّى مهمَّتُها الرئيسى نقل الفساد إلى العالم الثالث.

فالمنتظر للدولة المباركة سوف يعيش كلَّ تلك المغريات طوال حياته فيشاهد بأمّ عينيه أنَّه يسير إلى جهة والعالم بأجمعه يسير إلى جهة أخرى مضادَّة له تماماً ومن ناحية أخرى يشاهد أنَّ جنود الشيطان وأهل الدنيا يمثِّلون السواد الأعظم فهم الملأ الذين يملئون الأعيُن.

ومن المؤسف جدّاً أنَّ أرباب الدنيا ربَّما ينطلقون من منطلق النصيحة والإصلاح والحب فى مسيرتهم الباطلة حيث يُترائى أنهّا حركة إصلاحية بل إسلامية يتقرب بها إلى الله، ومن الصعب أن يقتنعوا بخطأهم أو يحتملوا ذلك، ومن الواضح أنَّ هذا الأمر سوف يجعل المؤمن المنتظر الصابر يعيش حالة صعبة أخرى وهى حالة: (الغربة) ولا تتلخَّص هذه الغربة فى الغربة الاجتماعية بل هناك غربة أصعب من ذلك ألا وهى الغربة الفكرية والأيديولوجية التى تؤكد عليها الأحاديث الشريفة وتجعلها من صفات وعلائم المنتظر الحقيقى كالحديث التالى:

(..على بن موسى الرضا عليه السلام ... قال بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا فطوبى للغرباء قيل يا رسول الله ثم يكون ما ذا قال ثم يرجع الحق إلى أهله).(۶)

الثانى: التصابر

فماذا يفعل إذاً هـذا الصابر كى يستمرَّ فى صبره ولا يهون؟ لابـدّ وأن ينتقل من مرحلـة الصبر إلى مرحلة أرقى وهى التصابر كى يخلق الصبر فى الآخرين حتَّى ينسجموا معه فيستمرَّ فى مسيرته ويصمد فى مواقفه حتى تحقق تلك الدولة العالميَّة المباركة،وسورة العصر هى التّى ترسم الطريق للمؤمنين المنتظرين قال تعالى: (بسم الله الرحمن الرحيم والعَصر) أى قسماً بالعصر وربَّما يكون المقصود من العصر فى هذه السورة هو عصر الحجَّة عجلّ الله تعالى فرجه الشريف.

أو ما ذكره الإمام قدِّس سرُّه حيث قال: (يقال:أن العصر هو الإنسان الكامل، وهو إمام الزمان سلام الله عليه أى عصارة جميع الموجودات أى قسماً بعصارة جميع الموجودات قسما بالإنسان الكامل) ولا منافاة بين التفسيرين.

(إنَّ الإنسان لفى خُسر) هذا الإنسان الذى قد حُكم عليه بالخسران المطلق هو الإنسان الذى يعيش خارج العصر أى يعيش حالة الغيبة.

والإنسان المذكور هنا يشمل جميعهم (إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) والاستثناء بطبيعته يدلُّ على النُدورة والغربة فالنادر من الناس والقليل منهم يتَّسمون بهذه السمات الأربعة المتوالية والتّى ترجع بالأخير إلى صفة فاردة وهى (انتظار الفرج) على ضوء ما قدمنا.

إلى متى والجدير بالذكر أنَّ التواصى بالحق والتواصى بالصبر هى حالة ثابتة للمؤمن مادام هو مؤمن.

فمن الأحرى أن يُسأل إلى متى هـذا التواصى؟ وفى آخر المطاف هل لمجتمع أن يعيش الراحة والطمأنينة والهدوء؟ وإن كان الجواب سلبياً فأين حكمة الله البالغة وأين لطفه الشامل وأين كرمه الجميل؟

أقول: لابـدَّ من وصول الإنسان المؤمن المتَّسم بتلك الصفات إلى مرحلة نهائية وهى مرحلة الكمال، وهى مرحلة العيش فى العصر لا خارجه على ما تدلُّ عليه السورة المباركة.

الانتظار و الرجاء

[تمهيد]

قلنا أنَّ هناك بُعدين للانتظار أحدها الرفض والثانى الرجاء وفصَّلنا الحديث فى البعد الأوَّل وحان الآن التحدُّث عن البعد الثانى فنقول:

هناك أحاديث تؤكِّد على أنَّ أمر الأئمَّة عليهم السلام هو الشىء المُنتَظَر.

فهل هناك طريقٌ يوصلنا إلى أمرهِم عليهم السلام؟

وهل من السهل أن نعرفَ أمرَهُم؟

أمرُهم صعبٌ مُستَصعَبٌ وردت أحاديث كثيرة جدّاً تؤكِّد: (إنَّ أمرَنا صعبٌ مستصعبٌ لا يَحتمله إلا مَلَكٌ مقرَّب أو نبيٌّ مُرسلٌ أو عبدٌ امتَحَن اللهُ قلبَه للإيمان) فلاـ بدَّ إذاً من التعمُّق فى مثل هذه الأحاديث حتَّى نعرف المقصود منها ثمَّ نعرِف كيفيَّة تسهيل هذا الأمر المُستصعب؟

فنقول: الكلام حول هذه الأحاديث يتلخَّص فى جانبين:

الأوَّل: من ناحية الصدور:

ويشتمل على:

ألف- مصادر الأحاديث.

ب- المعصومون الذين نقلت عنهم تلك الأحاديث.

ألف- المصادر

نقل الحديث كلٌّ من:

۱- الكلينى رحمة الله عليه فى كتابه الكافى وقد جعل لذلك باباً مستقلاً وهو باب (فيما جاءَ أنَّ حديثَهم صعبٌ مستصعبٌ).(۷)

۲- الشيخ المفيد فى إرشاده واختصاصه.

۳- الصدوق فى توحيده وخصاله وأماليه وكتابه معانى الأخبار.

۴- وأيضاً فى كتاب بصائر الدرجات ورجال الكشى.

وكُتبٍ أخرى ذكرها العلامَّة المجلسى فى بحاره من أراد الإطلّاع عليها فليراجع.

ب- عمَّن نُقلت

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وكلٍّ من أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام والإمام زين العابدين على بن الحسين عليه السلام والإمام أبى جعفر الباقى عليه السلام والإمام أبى عبد الله الصادق عليه السلام.

الثانى: من ناحية الدلالة

ويشتمل على: (عبارات الحديث المختلفة والجمع بينها)

وينبغى لنا أن نَذكر كافة العبارات التّى صدرت عنهم عليهم السلام فى هذا المجال كى نفهم المراد الصحيح من كلامهم بالجمع بينها فنقول:

ألف: أمّا بالنسبة إلى الشىء الذى هو صعبٌ مستصعب:

وردت العبارات التالية:

(قال رسول الله صلى الله عليه وآله إنَّ حديثَ آل محمد صعب مستصعب) وعن الأئمَّة عليهم السلام (إنَّ أمرَنا..)(إنَّ حديثنا...)(إنَّ علم العالم...)(إنَّ كلامى...)

ب:الأوصاف المختلفة:

وأيضاً بالنسبة إلى أوصاف ذلك الأمر فقد وردت بِصُوَرٍ مختلفةٍ:

أهمُّها:

(عن أبى جعفر عليه السلام قال إنَّ حديثنا صعبٌ أجردٌ ذكوانٌ وَعِرٌ شريفٌ كريمٌ) (..عن الاصبغ بن نباته عن أمير المؤمنين عليه السلام قال سمعته يقول إنَّ حديثنا صعبٌ مستصعبٌ خَشِن مخشوشن)

وفى حديث أبى جعفر عليه السلام يخاطب جابر بن يزيد: (يا جابر حديثنا صعب مستصعب أمرد ذكوان وعِر أَجرد) وأيضاً فى حديث أبى الجارود عن الإمام الباقر عليه السلام: (سمعته يقول ان حديث آل محمد صعب مستصعب ثقيل مقنع اجرد ذكوان..) وفى حديثٍ آخر قال الراوى: (قلت فسر لى جعلت فداك قال ذكوان ذكىٌ أبداً قلت أجرد قال طرىٌ أبَداً قلت مقنَّع قال مستور) وفى خصوص الكلمة الأخيرة ورد حديث فى الكافى: (عن محمد بن يحيى عن احمد بن محمد بن عيسى عن على بن الحكم عن خالد بن نجيح عن أبى عبد الله عليه السلام قال إنَّ أمرَنا مستور مُقَنَّعٌ بالميثاق فمن هتك علينا أذلَّه الله) ويمكن تقسيم هذه الصفات إلى قسمين رئيسيين:

ألف: صعبٌ مستصعبٌ وعِر خَشِن مخشوشن. ثقيل.

ب: اجرد ذكوان ذكيٌ قال (طرى أبداً)

ج: مقنَّع قال مستور.

د: لا يعرفه إلاّ؟

ومن هو الذِّى يَعرِفُ أمرَهم و يُقرُّ به و يُؤمنُ به ويَعيه ويَصبر عليه ويعمل به ويحتمله ويعقله على حسب الروايات؟؟

الأحاديث فى هذا المجال تؤَّكِّد على أنَّهم ثلاثة وهم: (مَلَكٌ مقرَّب أو نبيٌ مُرسَلٌ أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان).

ولكن هناك حديث أضاف إلى هذه الثلاثة أمراً رابعاً وهو" مدينة حصينة. "وفى بعضها" مؤمن ممتحن "وورد فى بعضها" إلاّ من كتب الله فى قلبه الإيمان "ووردت صُوَر أخرى وهى: (إلا صدور منيرة أو قلوب سليمة و أخلاق حسنه)(إلا صدور مشرقة وقلوب منيرة وأفئدة سليمة وأخلاق حسنة)(ولا تعى حديثَنا إلا صدور أمينة وأحلام رزينة)(لا يعى حديثنا إلا حصون حصينة أو صدور أمينة أو أحلام رزينة)(لا يعمل به ولا يصبر عليه إلا ممتحن قلبه للإيمان) وفى حديث عمرو بن اليسع عن شعيب الحداد بعد ما نقل ذكر الصادق عليه السلام الصفات الثلاثة وأضاف (أو مدينه حصينة) قال عمرو فقلت لشعيب يا أبا الحسن (وأى شئ المدينة الحصينة قال فقال سالت الصادق عليه السلام عنها فقال لى القلب المجتمع) أقول: ومن خلال الأحاديث السابقة نستنتج النتائج التالية:

۱- إن المعرفة و العمل متلازمتان لا تنفكان أبدا.

۲- إن هناك تسلسل طولى بين كل من الأمرين:

الف: الإيمان و المعرفة و الوعى و التعقل.

ب: الاحتمال (أى التحمُّل) والعمل والصبر على ذلك.

فلا يمكن للإنسان أن يحتمل الصعب المستصعب إلا بعد أن أذعن به وتعرَّف عليه حق المعرفة.

۳- إن أمرهم عليهم السلام هو شئ مجرد صافٍ نورانى خارج عن عالم الكثرة و المادة (ذكوان أجرد) وبطبيعته يكون(مقنعا) أى مستوراً.

۴- إن الأمور النورانية مهما كثرت فهى واحدة لتجرُّدها و بساطتها.. فلا تناقض و لا تخالف بين (الحديث والكلام والأمر) مادام كلها تنطلق من ذلك النور بل فى الواقع كلُّها ترجع إلى شيءٍ واحد وهو الأمر.

وهناك نتيجة خامسة وهى:

دولة المهدى دولة النور:

إن الصفات المذكورة فى الأحاديث للمؤمن الذى يحتمل أمرهم كلَّها صفاتٌ تنبئ عن واقع نورانى قد استولى على ذلك الإنسان المتَّصف بتلك الصفات ككونه ملك مقرب أو نبيٌّ مُرسل أو عبد ممتحن أو صدور منيرة أو قلوب سليمة... الخ وهذا إن دلَّ على شئ فإنما يدل على أن الواقع الذى سوف يحققه ولى الأمر عجل الله تعالى فرجه الشريف هو واقع يختلف تماماً عمّا نعيشه نحن فى عصرنا الحالى من العيشة المادية الصرفة التى لا تتحلى بالمعنوية والنورانية أصلاً.. وقد مَلئَت هذه الدنيا أفكارَنا وأذهاننا بحيث لم تسمح لنا أن نتصور تلك الدولة تصوراً صحيحاً ناهيك عن التصديق بها كما هى وبالفعل صار هذا الأمر أمراً صعباً مستصعباً علينا.

وعليه:

يتأكد علينا أن نجدد نظرنا فى فهم و معرفة دولة المهدى كى نرغب فيها وننتظرها..

وفى زيارة الجامعة الكبيرة:

(عارف بحقكم مقر بفضلكم محتمل لعلمكم محتجب بذمتكم معترف بكم مؤمن بإيابكم مصدق برجعتكم منتظر لأمركم مرتقب

لدولتكم)

وفى زيارة أخرى:

(السلام عليكم يا أئمة الهدى السلام عليكم يا أعلام التقى السلام عليكم يا أولاد رسول الله أنا عارف بحقكم مستبصر بشأنكم موقن بإيابكم مصدق برجعتكم منتظر لأيامكم مرتقب لدولتكم).

الهوامش

---

(۱) الشعراء ۱۷۹،۱۶۳،۱۵۰،۱۴۴،۱۳۱،۱۲۶،۱۱۰،۱۰۸. (۲) الزخرف ۶۳. (۳) الأعراف۱۶۵. (۴) الأنفال ۲۵. (۵) الكافى ج ۲ ص ۹۱ رواية ۱۵. (۶) بحار الأنوار ج ۲۵ ص ۱۳۴ رواية ۶ باب ۴. (۷) الكافى ج ۱ ص ۴۰۰.

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحامل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جهةٍ أُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ أُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائیّ و اليدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماکن الدينيّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکين فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّی (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المکتب الرّئيسیّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المرکز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حکوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّی بالقائميّة) و مع ذلک، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الکلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إيّانا فی هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹